1431هـ/2010م

الأُصُولُ الْفَلْسَفِيَّةُ لإِصْلاَحِ الْمُجْتَمَعِ وَتَغْييرِهِ

– خُطُوطٌ عَرِيضَةٌ –

الشيخ هشام عبدالكريم صالح البدراني*

تاريخ التقديم: 2008/7/18 تاريخ القبول: 2009/3/4

الْمُقَدِّمَــةُ: فِكْرَةٌ عَامَّةٌ عَنِ الإِصْلاَحِ وَالتَّغْيِيرِ

1. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾)[3]. وعن أبي سعيد الخدري (ﷺ) قال: سمعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) يقول: [مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ][4].
2. والتغيير في الآيتين؛ قال القرطبي: (أخبر الله في هذه الآية أنه لا يغيِّرُ ما بقَومٍ حتى يقعَ فيهم تغييرٌ) [5] ودلالته في اللغة: هي (عبارة عن تبديل صفة إلى صفة أخرى، مثل تغيير الأحمر إلى أبيض)[6] وهو على ثلاثة أنواع:

---

* باحث وأكاديمي.

(1) الرعد/ 11.

(2) الأنفال/ 53.

(3) الأعراف/ 96.

(4) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان: الحديث (49/78).

(5) الجامع لأحكام القرآن: ج 9 ص294.

(6) المفردات في غريب القرآن: (غور)، والكليات: (التغيير): ص294.

الأولُ: تغييرٌ في ذاتِ الشيء كتغيير الليلِ والنهار.
والثاني: في جزءِ الشَّيء كتغيير العناصرِ بتبديل صُورها.
والثالث: في الخارجِ عن الشيء كحركةِ الأشياء بتغيير مواضعِها ومثالها تغييرُ الأفلاك. والمراد في تغييرِ القوم على أنفسهم جميع ما تقدَّم حسب نوعه؛ لأن أمرَ التغيير متعلقٌ بالنَّفْس، أي بالإحساسِ والشُّعور والفكرِ.

3. وأما دلالة الإصلاح في لسان العرب؛ فهو: فعلُ الصَّلاح، وهو ضد الفساد، وأصلحَهُ ضدَّ أفسدَهُ، وهو سلوك طريق الهدى، أو هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل بالمعروف، وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[1] (أي ما أريدُ إلاَّ فعلَ الصلاحِ، أن تصلِحُوا دُنياكم بالعدلِ، وآخرتكم بالعبادةِ) [2]. ويشتمل الإصلاح على التغيير بتبديل حال الإحساس والشعور والفكر في النفس إلى حال الهدى بالصدق والعدل والاستقامة على الأمر.

4. عالج الإسلام طريقة الإصلاح وإحداث التغيير بأن جعل العقيدة الإسلامية سببَ كلِّ أمرٍ في سبيل الهداية والرشاد، وذلك بأن يجري التفكر على أساسها وأصولها والانضباط بأفكارها وأحكامها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾[3] أي لأَنْ تقوموا؛ قال القرطبي: (وهذا القيامُ معناه القيام إلى طلبِ الحقِّ؛ لا القيام الذي هو ضدُّ القعودِ، وصفتهُ ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ أي وِحْداناً ومجتَمِعين لأجلِ التفكُّر في الكلمةِ الموعوض بِها. وَقِيْلَ: إنَّما قال ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ لأن الذهنَ حجَّة الله على العبادِ وهو العقلُ؛ فأوفَرُهم عقلاً أوفرهم حظّاً من اللهِ، فإذا كانوا فُرادَى كانت فكرةً واحدة؛ وإذا كانوا مثنى تقابلَ الذِّهنان فتراءى من العلمِ لهما ما أضعفَ على الأنفراد). والمعنى المراد: الأمر بالتفكر على أساس الإيمان بالله وباليوم الآخر، وما جاء من

(1) هود/ 88.
(2) الجامع لأحكام القرآن: ج9 ص90.
(3) سبأ/ 46.

الهدى بهذا النبي محمد (ﷺ)؛ والأخذ بجميع الأفكار والأحكام المبنية على هذا، والثقافة المتكوِّنة منه، والتحذير من التخلف عن دين الله والتبعية للثقافات الأخرى، إلاَّ على سبيل الانتفاع لا التأثر، وذلك لأهل الاختصاص لا لكل الناس، وإلا حصل الفساد لا محالة.

5. وعلى هذا تعين أن الطريق الوحيد للإصلاح المنتج للتغيير هو التفكر في قضايا الحياة الدنيا لينتج عنه فهم للحياة يرفع قدر الإنسان وينهض بشأنه، ولا يكون هذا الفكر مركزاً تركزاً منتجاً إلا إذا بُني على أساس فكري كلي عن الكون والحياة والإنسان، أي على أساس الفكرة الجامعة؛ وهي العقيدة المؤدية إلى إفراد الله تعالى بالعبادة والطاعة. ففكرة (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) هي أساسُ كلِّ فكرٍ يجولُ في ذهن الإنسانِ المسلم حين صلاحه، وهي محوَرُ دوران عمليَّة الإصلاحِ المنتج للتغيير، فتدورُ حول مركَزِها جميعُ الأفكارِ والأحكام.

6. وعلى هذا أيضاً، فإن الحقيقة الموضوعية للإصلاح، هو أنه حركة فكرية بما عند الإنسان من فكر عن الكون والحياة ونفسه، وعن علاقتها بما قبلها وما بعدها، تحدث هذه الحركة الفكرية التغيير النفسي في الفرد والجماعة؛ وتنتج التغيير الثقافي والاجتماعي والسياسي في بنية المجتمع ونسيج علاقاته بما يبدل الحال من الجهل إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الفساد إلى الصحَّة، ومن الاعوجاج إلى الاستقامة والعدل.

7. أما الإصلاح في غايته، فهو حركة ثقافية من أجل التغيير في المجتمع، فتنهض بالفرد لأن يكون جزئية صالحة للجماعة، وتنهض بالجماعة إلى قيادة حركة الأمة في المجتمع، وتنهض بالمجتمع والدولة لقيادة العالم وإنقاذه بالمبدأ.

8. وهنا لا بد من لفت النظر إلى أن الإصلاح المنتج للتغيير، لا يكون إصلاحاً للقضايا الجزئية متوقفاً عندها، ويجعلها هي الغاية أو منتهى الفكرة في مجالات العمل المجتمعي. بل لا بد من توفر **السَّعَةِ** في النظرة و **الشُّموليَّة** فضلاً عن **استنارَةِ** فكرة الإصلاح من أجل التغيير و **إنسانيَّة** العمل بها. وهذه العناصر

الأربعة هي التي تجعل الإصلاح منتجاً فعلاً ومتدفقاً في المجال الفكري والثقافي بالمعرفة التي تغير الرأي العام في المجتمع وأعرافه بين الناس؛ وكذلك تجعل من ممارسة القضايا الجزئية أسبابَ إصلاح وأمثلة تغيير في المجتمع لا محل مساءلة وتحمل تبعات عند الحاكم الفاسد أو المسؤول غير المخلص.

9. وهنا أيضاً يلاحظ أن عناصر الإصلاح المنتج للتغيير أنها أربعةٌ؛ وهي:
   أ. مادة الإصلاح المنتج المعدة للتغيير (الفكرة وطريقتها في الحياة).
   ب. الأمة (أفراداً وجماعات).
   ت. المصلحون (أفراداً وجماعات).
   ث. الوسيلة في ممارسة الإصلاح وآليته في التغيير.
10. ومن دراسة الواقع المعاصر وحال النُّخب وكثير من المثقفين، نجد أنهم كثيراً ما يتساءلون، وتجري المجادلات، ولكنها دون مستوى التأصيل والتنظير غالباً، ويمكن أن نشير إلى بعض هذه الأسئلة:
   أ. كيف يتأتى للمسلمين إقامة الحياة الإسلامية أو استئنافها، وهل تتأتى كما يلمح عند البعض المتعجل الذي يريد إقامتها بين ليلة وضحاها، أليس الحاجة تدعو إلى (تقييم الوضع الحالي للأمة – النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي – في البلد المعين)؟
   ب. ثم من أين يبدأ الإصلاح والتغيير في المجتمع من الفرد أم من المجتمع؟ أن يكون طابعه فردياً أم جماعياً؟ وألاَ يَنْظُرُ إلى السُّهولة واليُسر أن الإصلاحَ الفردي أسهل وأيسر من الإصلاح الجماعي؟
   ت. هل نبدأ البحث عن سلطان المسلمين أولاً لكي يأتي الحاكم المسلم ويطبق الشريعة أم أننا ننظر إلى الأمراض التي أصابت المجتمع؟ وهل الوضع الحالي للناس (في العراق مثلاً) يتقبل بحرارة مفاهيم الإسلام شريعة ومنهاجاً ويطبقها جملة وتفصيلاً؟
   ث. ما هي الآلية الصحيحة لتنفيذ عملية الإصلاح والتغيير نحو واقع إسلامي في بلدنا؟

وهذه التساؤلات في حقيقتها تعبر عن ماهية الإصلاح أو عن عناصره المكونة لهذه الماهية من جنسه، والإجابة عنها في حقيقتها هي معالجة لأصول الإصلاح وعوامله في التغيير، وهذا يعني أن الإجابة عنها يجب أن تكون فلسفة واقعية لفكرة الإصلاح المنتج للتغيير وليس فلسفة خيالية لا واقع لها. وعلى هذا الأصل وما تقدم من أصول معرفية نبدأ بالإجابة عن الأسئلة بما يوضح عملية الإصلاح المنتج للتغيير.

أوَّلاً: حَاضِرُ الأُمَّةِ وَحَالُهَا فِي التَّمْكِينِ

الدارس لحال الأمة الإسلامية في تاريخها، وأصولها التي مرَّت بها في التمكين، يجد أن الحاضر هو نتاج التخلف عن الأصول والجذور؛ وذلك إذا نظرنا إلى جذور هذه الأمة، نجد أنها مجاميع من الناس، شعوباً وقبائل آمنت بعقيدة الإسلام وارتبطت بنظامها المنبثق عنها، وتماسكت لحمتها. وهذه المرحلة تمثلت بدولة الحكومة النبوية، ومن ثم بدولة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، وتحولت الخلافة إلى ملك عضوض، ولكن الأمة حافظت على هويتها العقيدية الإسلامية ونظمها الشرعية، إلا في أمر اختيار الخليفة، فإنه صار يجري على غير الطريقة الشرعية الانتخابية الشورية، ويجري بطريقة الاستخلاف والتوريث.

ثم منذ قرن من الزمان تقريباً، والأمة تعاني غيابَ اختيارها للحاكم، بل أصبح يأخذه بطريقة الانقلابات العسكرية أو المؤامرات الدولية، فصار الحال كما في حديث الأمراء، حال الملك الجبري، وهو الطور الثالث في حكم الأمة بعد الحكومة النبوية.

وعلى هذا الوصف الموجز، نجد أن الأمة في حاضرها اليوم، أنها تؤمن بالإسلام عقيدة ومعالجات ومنهاجاً؛ ولكنها مغلوبة على أمرها تحت سلطان القوى العسكرية التي تجبر الناس على نمط من النظام، فالمحتل بمختلف صوره يمنع الأمة من ممارسة طريقتها في الحياة، ويخضعها لسبيله بالقوة تارة وبالمكر والخداع تارة أخرى، ومحاولته توظيف بعض أبنائها لأغراضه. فهو – أي المحتل

– يحول بين الأمة وبين تطبيق الإسلام، أي يمنع إجراء عملية الإصلاح والتغيير على حسب اختيار الأمة ووفق إيمانها وعقيدتها.

ثم إن حال أبناء الأمة بعد هذا التراكم من السنين، صار بين اثنتين:

الأولى: الوهن بحب ممارسة الحياة بالطريقة المتيسرة السهلة على حد فَهمهم، وصار الواقع الفاسد مصدر فكر الكثيرين منهم، سيما أنه غلب عليهم الجهل بأفكار الإسلام وأحكامه، ثم اعتادوا الواقع وهم غافلون عن واقعهم المعاصر ومخططات أعدائهم.

الثانية: لم تنضج الخبرات وتقوى الأفهام في مواجهة التحديات والمخططات، مما ينتج عنه لا محالة: ضعف الأداء أو عجالته، فيقصر عن أسباب النصر.

ومن الدراسة والبحث والنظر في الواقع نلاحظ ثلاثة أمور:

الأول: تحديد سبيل الإصلاح ومفاهيمه الأصولية والضرورية.

والثاني: الوضع النفسي للأمة في قبول الإصلاح.

الثالث: الوضع النفسي للأمة في التفاعل مع المصلحين.

الأوَّلُ: سَبِيلُ الإِصْلاَحِ:

سبيل الإصلاح سبيل واحد، وهو النهضة بالإنسان أو قومته كما في التعبير القرآني، وتحصل النهضة أو القومة بالفكر، بأن يقصد عملية التفكير للتغيير، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[1] والتفكر هنا لأجل تغيير ما بالنفس لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[2] وسبيل ذلك هو العمل إلى استئناف الحياة الإسلامية، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا أخذنا الإسلام كاملاً: أخذناهُ **عَقِيْدَةً تحلُّ** العقدةَ الكبرى، وتتركَّزُ عليها وجهةُ النظرِ في الحياة، **وَأَنْظِمَةً تَنْبَثِقُ** عن هذه العقيدةِ، أساسُها كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ، وثروتُها الثقافيةُ هي الثقافةُ الإسلامية بِما

(1) سبأ/ 46.
(2) الرعد/ 11.

فيها، من فِقْهٍ، وَحَدِيْثٍ، وَتَفْسِيْرٍ، وَلُغَةٍ، وغيرِها، ولا سبيلَ إلى ذلك إلاَّ بِحَمْلِ الْقِيَادَةِ الْفِكْرِيَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ حَمْلاً كَامِلاً بالدعوة إلى الإسلامِ، وبإيجاد الإسلامِ كاملاً في كلِّ مكان، حتى إذا انتقلَ حملُ القيادة الفكريةِ إلى الأُمة بِمجموعها وإلى الدولةِ الإسلامية، قُمْنَا بحملِ القيادةِ الفكرية لِلْعَالَمِ.

هَذَا هُوَ السَّبِيْلُ الْوَحِيْدُ لِلنَّهْضَةِ: حَمْلُ الْقِيَادَةِ الْفِكْرِيَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ لِلْمُسْلِمِيْنَ لِاسْتِئْنَافِ الْحَيَاةِ الإِسْلاَمِيَّةِ، ثُمَّ حَمْلُهَا لِلنَّاسِ كَافَّةً عَنْ طَرِيْقِ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ.

وهذا المفهوم لسبيل الإصلاح وإدراكه يمثلان أساس الأصول الفلسفية لإحداث الإصلاح في الفرد والجماعة وإيجاد التغيير في المجتمع والدولة.

الثَّانِي: الْوَضْعُ النَّفْسِيُّ لِلأُمَّةِ فِي قَبُولِ الإِصْلاَحِ:

استهلالٌ: في بيان مفهوم قبول الأمة للإصلاح:

قبول الدعوة الإصلاحية هو الاستجابة لمضمونها الفكري بالإيمان تصديقاً وتسليماً، بما ينتج عنه العمل لا محالة. وأبناء الأمة مسلمون، مؤمنهم وفاسقهم، صادقهم وكاذبهم، حسن الخُلق منهم والسيء، فليس المراد بالقبول والإيمان موضوع الكفر والتكفير، وإنما المراد الإيمان العملي، ولهذا سيوجد من المسلمين من يرفض عملية الإصلاح ويعوق استئناف الحياة الإسلامية لضعفه ووهنه بأنه يحب الدنيا ويحب أسباب البقاء وكما في حديث الوهن.

وهذا الحال في الأمة بين إرادة المؤمن وتعويق الفاسق، بسبب تفاوت رؤية المتلقين لشريعة الله ومنهجها، وهو ما له الأثر البالغ في التعامل مع دين الله في حياتهم، بحسب مستوياتهم في الفكر والمعرفة وإدراك العلم الشرعي. وكذلك بحسب قدراتهم الواعية للواقع ومدى امتلاكهم للخبرة التاريخية. ثم إدراكهم من ذلك ما يجب من ضرورات فكرية وعملية في المرحلة الزمنية والمكانية والظروف المرتبطة بالحال.

وإذا لم تتضح الرؤية كفاية مؤهلة للعمل الصحيح، ستخفق عملية الدعوة لا محالة، ويظهر الفشل حتماً مقضياً. وعلى هذا فإنه يجب على المصلحين التأني في التعامل مع إحساس الأمة وشعورها والفكر الآني الأناني الذي حلَّ فيها،

وذلك من خلال تجديد الأفكار في أذهان أبنائها وبلورتها بالمفاهيم التي تفرضها كلمة الله لتدبير شؤونهم ورعاية مصالحهم. فلا بد أن ينظر دعاة الإصلاح والتغيير في خطةِ عملهم الوضعَ النفسيَّ للأمة لقبول الإصلاح والتفاعل مع المصلحين. أي ينظروا إلى الحال الإيمانية التي تعيشها الأمة في حسِّها وشعورها، لأن الأمة المفتونة أو المتبلدة الإحساس لا يقدر أبناؤها على إنفاذ أمر الله فيهم، فتضعف أمام التحديات في حال تعجل الوصول؛ لا محالة.

ولقد ضربَ الله لنا مثلاً في فتنةِ قوم موسى. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى. قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى . قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمْ السَّامِرِيُّ . فَرَجَعَ مُوسَى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي . قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾[1].

وعندما يكون إحساسُ الأمة متبَلِّداً بالجمودِ جافّاً لا يتحركُ، فإن الدعوةَ لا تتفاعلُ في واقع الناسِ، وقطعاً لا تنتجُ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

ومن دراسة الآيتين والتفكر فيهما والاستقراء لواقعهما:

1. الأُمَّةُ الإِسْلاَمِيَّةُ كُلٌّ لاَ يَتَجَزَّأُ:

(1) طه/ 83-87.
(2) غافر/ 38-44.

الأمة كيان اجتماعي معقد ومتنوع، يعيش وفق طريقة معينة، (والأمة الجماعة من الناس يجمعهم أمر ما، دين أو زمان أو مكان واحد، سواء كان ذلك الجامع اختيارياً أم قهرياً، والجمع أُمم) [1] وقال الجوهري: (والأمة: الطريقةُ والدِّين)[2] وقال الراغب: (أمة قائمة؛ تقديره: ذو طريقة واحدة) [3] وفي قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[4] خلقناكم من ذكر وأنثى، والتعارف يكون على أمر جامع بينهم، وهي الرابطة التي تديم العلاقة فيما بينهم. وعلى هذا فإن الأمة، أية أمَّة من الأُمم، جسم واحد لا يتجزأ، وهكذا ينبغي أن ينظر إليه ويتعامل معه بأنه كيان إنساني تربطه الفكرة وتنظمه الطريقة في العيش اختياراً أو قهراً.

والأمة في تكوينها الكلي كالإنسان، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وإذا دبَّت فيه الحياة، فإنها تدب فيه بوصفه كلاًّ، وكذلك الأمة المتخلفة عن فكرتها وطريقتها، فإنها تعدُّ أمة مريضة، وإذا دبت فيها الحيوية، فإنها تدب فيها بوصفها مجموعة إنسانية واحدة، وباعتبارها الكلي لا محالة.

والحياة للأمة الإسلامية هي نمط سلوكي في العيش وممارسة البقاء، وهذا النمط مظهر لروحها التي هي الفكرة التي آمنت بها. وفي القرآن هي كلمة الله التي دعى إليها رب العزة وأمر بالقومة بها قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[5] وهذه الكلمة في معناها الواضح هي الشريعة والمنهاج؛ قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[6] فالشريعة هي العقيدة

(1) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ج 1 ص119؛ تأليف أحمد بن يوسف (السمين الحلبي) م (756) هـ. تحقيق: محمد باسل عيون السود: ط دار الكتب العلمية – بيروت.
(2) الصحاح: ج 5 ص171؛ ط دار الكتب العلمية.
(3) مفردات ألفاظ القرآن: ص87؛ ط دار القلم والدار الشامية.
(4) الحجرات/ 13.
(5) سبأ/ 46.
(6) المائدة/ 48.

والمعالجات لشؤون الحياة وقضايا الإنسان، والمنهاج هو سلوك هذه المعالجات على أساس العقيدة تنفيذاً وديمومة ودعوة؛ فيكيِّف الإنسان سلوكه في الحياة بنمط الشريعة والمنهاج، ويكون صلاحه وسط الجماعة على قدر إيمانه فهماً وعملاً؛ وتتكامل الجماعة بالحرص على الطريقة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] فتحافظ في بقائها على جوها الإيماني ومناخه الروحي بالتقوى، وإذا حصل تنكُّب أو خلل في هذا الكل، فإنه لا بد من تجديد الإيمان بالفكرة والممارسة. وهذا هو مفهوم أن الأمة كل لا يتجزأ؛ والخلل فيه معناه الخلل في أحد عناصر مكونات بناء الأمة على أساس ما آمنت به وأصوله.

2. حَتْمِيَّةُ تَجْدِيدِ اهْتِدَاءِ الأُمَّةِ بِالإِسْلاَمِ:

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2] فالاستجابة لداعي الله والعمل بكلمته هو الحياة، وهو الاهتداء بالإسلام، لذا، فإن وجودَ الكلمة مبدأ الخير كله في الأُمة ليس كافياً لبَعثِ الحياةِ فيها كما تقدَّم في الآيَتين المذكورتين وغيرِهما؛ وكذلك ليس كافياً لكي تستشعر الأمة أنها كل مترابط لا يتجزأ، بل اهتداءُ الأمة للمبدأ، ووضعهُ موضعَ العملِ في حياتِها، هو الذي يجعلُها حيَّة؛ إذ قد تكون الكلمةُ المبدأ موجودةً عند الأُمة في ميراثِها التشريعيِّ والثقافي والتأريخي، ولكنَّها في غفلةٍ عنه، فهي في غفلة عن فكرتهِ فلم تتَّضح العقيدةُ والمعالجات في حركتَي عقولهم وقلوبِهم، أو في غفلةٍ عن المنهاجِ الذي تفرضهُ الفكرة؛ فلا يعِي السوادُ الأعظمُ كيف يمارِسُ عقيدته في الحياةِ. لهذا مجرَّد وجود الشريعةِ والمنهاج في مثل هذه الحالِ لا يؤدِّي إلى إصلاحٍ ولا يُحدث تغييراً، أي تكون الأمَّةُ دون مستوى النهوضِ، فلا بد من الإدراك الصحيح للإيمان والوعي عليه في الواقع.

3. وُجُودُ الْهَزَّاتِ الْعَنِيفَةِ فِي الأُمَّةِ سَبَبٌ لِبَدْءِ الإِصْلاَحِ:

---

(1) الحجرات/ 13.
(2) الأنفال/ 24.

إن القرآنَ رَسَمَ خطّاً للأمة الحيَّة تسيرُ عليه؛ بأن الْمِحَنَ والمصائبَ التي تَهزُّ الأمةَ، تدفع فيها حيويَّة الإيمانِ بقضاياها المصيريَّة، وذلك أنه تدبُّ الحيوية في الأُمة حين تحصلُ هزَّات عنيفةٌ في المجتمعِ، فينتجُ عنها إحساسٌ مشترك، وهذا الإحساسُ المشترك يحمِلُ صفةَ الجماعة ويؤدِّي إلى التفكيرِ الجماعي لتأْطِيرِ القضايا بأبعادِها العمليَّة؛ فيَحدُثُ ذلك من جرَّاء البحثِ في الأسباب والمسبَّبات لهذه الهزَّة أو الهزات؛ والنظرِ في الوسائل القريبة والبعيدة التي تنفذُ منها. وهنا تكون الأمَّة على مفترقِ طُرق؛ إما أن تتَّعِظَ من العذابِ الذي أصابَها فترجعَ إلى الصِّراط السويِّ والمنهج القويم، فتأخذُ بسِيرَةِ نبِيِّها وشريعةِ رسولها مُحَمَّد (ﷺ)، أو لا تتَّعِظ فتَضِلَّ وتَشْقَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ. حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾[1].

أما إذا اتَّعظَتِ الأُمة بتفكيرِها الجماعي بالهزَّة أو العذاب الذي مرَّ بِها، فإنَّها ستنظرُ القضايا بأسبابِها ومسبَّباتِها ووسائلها التي تنقذ منها، ويكون النظرُ مصحوباً بالبراهين والأدلَّة، فينتج التعبيرَ الدقيق عن الواقعِ المشكلة والحلَّ الصحيح. ويظل هذا النظرُ منتجاً الفكرِ المتصل بالواقعِ الموضوعي مرتبطاً بالبرهان والدليل، وبدوامهِ تتَّسِعُ الرؤيةُ في عمليَّة الاهتداءِ لمشروع النهضةِ في الإصلاح والتغييرِ، أي تنشطُ الحركة الثقافية بما ينتج النهضةَ الصحيحة لا محالة، ويلزم أن يكون الاهتداءُ إلى كلمةِ الله جماعياً في الأُمة لأنَّها اتَّعظَتْ مما أحسَّت به، فإحساسُها الكليُّ أدَّى إليه. وهنا يمكن أن تحصل اللملمة للقومة المطلوبة.

4. تَفَاوُتُ قُدُرَاتِ أَفْرَادِ الأُمَّةِ وَأَثَرُهُ النَّفْسِيُّ الْفَاعِلُ:

إن تفاوت قدرات أبناء الأمة له تأثير فاعل في الإصلاح والتغيير، فهو عامل مهم في القومة والنهوض، لأنه يسد الثغرات التي توجد خلال العمل الإصلاحي والتغييري، فكل يعمل من موقعه على ما يستطيع. ومن دراسة السُّنة

(1) المؤمنون/ 76–77.

لسيرةِ الْمُصْطَفَى (ﷺ) مع أصحابهِ، فضلاً عن قصصِ أصحاب الأنبياء وحواريِّيهم، وهي مذكورةٌ في القرآن والأخبار السُّنية في الباب، نجدُ أن الإحساسَ في الأفرادِ وإن كان مُشتركاً في الجماعة، إلا أنه يتفاوتُ، فيكون بنسبٍ متفاوتة بين الناس، على مقدار ما هيَّأهم اللهُ له، بما حبَاهُم من استعدادات ممتازةٍ؛ وفي الحديث عن عليِّ بن أبي طالبٍ (رضي الله عنه) أن رسولَ اللهِ (ﷺ) قال: [اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ] [1]. وطبقاتُ أصحاب النبيِّ (ﷺ) معروفةٌ بتفاوتِها في السَّبقِ والعمل، وكذلك سائرُ الناس؛ لذلك يظلُّ اهتداءُ الأمة للفكرةِ من كلمة الله الموعوض بِها كامناً في إحساسِها وشُعورِها إلى أن يجتمعَ تأثيرهُ فيتركَّزُ فيمن نالوا قَدْراً أعلى من الإحساسِ والفكر، فيوقِظُهم للإيمانِ ويُلهِمُهم الرشد ويبعثُ فيهم الحركةَ، فتظهر أعراضُ الحياة فيهم أوَّلاً؛ وهؤلاء غَرْسُ الله الذين يستعمِلُهم في طاعتهِ لا محالةَ. كما جاء في الحديث [إِنَّ اللهَ لاَ يَزَالُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْساً يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][2].

5. تَنَوُّعُ الطَّائِفَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَامِلٌ فَاعِلٌ لِتَحْفِيزِ نَفْسِيَّةِ الأُمَّةِ لِلعَطَاءِ:

التنوعُ في الفكر والفهم والعمل، عامل إيجابي ومظهر من مظاهر الحياة في المجتمع، وهو فاعل محفز لحركة الأمة وتفعيل إنتاجها النهضوي، فهذا التنوع فضلاً عن كونه حال طبيعية للحياة الإنسانية، فهو أيضاً مظهر ارتياح لأداء المهام والقيام بالواجبات، فيه يحصل التعاون وتحمل المسؤوليات، فهو مظهر عملي وإن كان يحتاج إلى تفوق حسي وفكري في رواده.

إن هؤلاءِ الذين نَالُوا قدراً أعلى من الإحساسِ والتفكُّرِ تنطبعُ فيهم إحساساتُ الجماعةِ بطريقة علوم الشريعة، وتتمركَزُ فيهم الفكرةُ عقيدةً ومعالجات ومنهاجاً، فيتحرَّكون حركةَ وَعْيٍ وإدْرَاكٍ، وهم عُيُونُ الأمة، والثُّلَّةُ الواعيةُ فيها؛ وهم الطائفةُ المؤمنة التي تظهرُ بِها الحجَّة على العبادِ وفي الحديث [لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ

(1) رواه البخاري في الصحيح: كتاب القدر: باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾: الحديث (6605)

(2) رواه الإمام أحمد في المسند: ج 4 ص200. وإسناده صحيح.

أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ] [1] وقال الإمام النوويُّ في الشَّرحِ: (إِنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ مُفَرَّقَةٌ بَيْنَ أَنْوَاعِ الْمُؤْمِنِيْنَ، مِنْهُمْ شُجْعَانٌ مُقَاتِلُونَ، وَمِنْهُمْ مُحَدِّثُونَ، وَمِنْهُمْ زُهَّادٌ وَآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمِنْهُمْ أَهْلُ أَنْوَاعٍ أُخْرَى مِنَ الْخَيْرِ) [2]. وهذا التنوُّع في حركةِ الأمة طبيعيٌّ جداً؛ لأن منطقَ الإحساسِ واللسان المعبِّر عنه يكون في بعضها أقوَى منه في بعضِها الآخر، فيختار كلُّ بعضٍ منهم ما يقوَى عليه ويستطيعهُ، على ما وسِعَهُ بصرهُ في الرؤية وبصيرتهُ في الفكر وتعيين الغاية، والكلُّ بأفرادهِ مؤمنٌ يهتدي إلى مبدأ الكلمة بشريعتهِ ومنهاجه، ويعتقدهُ عقيدةً راسخة، فتكون العقيدةُ والثقافة المتبنَّاةُ هي الرابطُ بين أشخاصِ هذه الفئة أو تلك الطائفةِ لإنجاز الأعمالِ وتحقيق الأهداف التي تقوِّي الأمةُ على معاونةِ الفئة أو الطائفة لإنجازِها وتحقيقها.

وعلى هذا، فإن الوضعَ النفسيَّ يظهرُ جلياً بنوعِ تفاعلها مع المبدأ، شريعةً ومنهاجاً؛ ومدى استجابتِها له؛ فإذا ظهرَ أثرهُ فإنه يظهر ابتداءً بأفرادٍ نالوا قدراً أكبرَ من الإحساسِ والإدراك؛ أي من قوَّة الإحساسِ وقوة الإدراك لإبصارِ المطلوب واتخاذِ أسباب العملِ به. فإذا لاحظنا ذلك فيتأتى لنا حينها أن ننظر في أثره، وهو الوضع النفسي في قبول الأمة الإصلاح وإيجاد التغيير.

الثَّالِثُ: الْوَضْعُ النَّفْسِيُّ للأُمَّةِ فِي التَّفَاعُلِ مَعَ الْمُصْلِحِينَ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ . فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ﴾[3].

---

(1) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإمارة: باب [لا تزال طائفة من أمتي]: الحديث (1920/170).

(2) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: مج 7 ص71: شرح الحديث [لا تزال طائفة]: باب (53).

(3) يونس/ 96–98.

ومن الدراسةِ والتفكُّر والاستقراء، نجدُ أن الطائفةَ أو الفئة المختارة حركةٌ جماعية، ولا يمكن أن تكون إلا حركةً جماعية؛ لأنه لا يتأتَّى الإصلاحُ والتغيير بحركةٍ فردية. حتى الأنبياءُ ورسُل الله كتَّلوا الناسَ بدعوتِهم إلى كلمةِ الله مبدأ كلِّ خير بحركةٍ جماعية، ولذلك كان لِزَاماً على القائمين على الفئة الظاهرةِ أو الطائفة المؤمنة في البلادِ الإسلامية أن يبحثوا البحثَ الدقيقَ عن الحركاتِ الجماعيَّة التي تعبِّرُ عن حقيقةِ الأشياء الفاعلة في إحساسِ الأمة وشُعورها وفكرِها. وأن يفهموها فَهْماً عميقاً ليَصِلُوا إلى الإيمانِ الذي يكشفُ عنهم عذابَ الخزيِ في الحياة الدُّنيا، ويكونون كما أمَرَ اللهُ أن يكونوا.

ومن دراسةِ الحركات الجماعيَّة التي لها قوَّةُ التأثيرِ في مجتمَعِها، يجد الخبيرُ أنَّها تنشأُ حين يكون هناك قضيةٌ؛ أي حين وجود واقعةٍ يُراد لها حكمٌ أو مشكلة يُبْحَثُ لها عن حلٍّ؛ سواءٌ أكانت القضية فكريةً فلسفية أو اقتصاديةً أو سياسية أو اجتماعية. فحين يكون العيشُ متَعَسِّراً تكون هناك قضية إشباعِ جُوعَاتِ الناس، ولا تكون قضيةٌ حين يكون الرَّخَاءُ ميسوراً. وحين تَحْدُثُ المظالِمُ ويظهر التعسُّف في استعمالِ السلطان تكون هناك قضيَّة قانونية أو سياسيةٌ أو اجتماعية، ولا تكون قضية حين تكون الحقوقُ الطبيعية للإنسان محقَّقة، والرفاهيةُ متوفرةً. ومن الناحية الإيمانية العقيدية لا تكون هناك قضيةٌ حين يكون المقياسُ لتولِّي الأمورِ الهامَّة هو الكفايةُ الشخصية. وعلى لسانِ الكفار في مناقشةِ الدعوة قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1] فكان مقياسُ الكفايةِ الشخصية في التعامُلِ مع الواقعة أو المشكلةِ، ولم يلتَفِتُوا إلى القضيَّة الكبرى في تفسيرِ علاقتهم بحياتِهم: مِنْ أَيْنَ؟ وإِلَى أيْنَ؟ ولِمَاذَا؟ أي لم يلتَفِتُوا إلى العُقدة الكبرى التي حلَّها حلاًّ صحيحاً يوجدُ السعادةَ أو يترتَّبُ عليه الشقاءُ إذا لم يكن حَلاً صحيحاً.

(1) الأنعام/ 29.

وهذا الفَهْمُ للحركات الجماعيَة؛ يُسهِّل على العاملين أن يَزِنوا كلَّ حركةٍ جماعية بميزانِها السويِّ بوصفها قضية تريدُ حلاً أو مسألة تريدُ جواباً أو واقعةً أو حدثاً يجب أن يُتعامل معه حسب مقتضيات المبدأ الحقِّ. وهذا يتطلبُ ما يأتي:

1. دراسةُ البيئة التي عاشت أو تعيشُ فيها الحركات الجماعية، والظروفِ التي لابَسَتْها بقصد معرفةِ المطلوب الْحُكمِيِّ فيها.
2. دراسةُ أثرِ فعل الأفراد النابِهين في تسييرِ أمرها؛ وتسهيلِ مهمَّتها، واتخاذهم الأسبابَ في القضاءِ على ما يعوقُ نجاحَها، أو يعرقل سيْرَها، بقصد معرفةِ الخبرة العملية فيها.
3. ينظرُ لنجاحِ الحركة الجماعية القدرة على إثارةِ **رُوحِ الامْتِعَاضِ** من الفسادِ في الناس؛ وحثِّهم على إظهارِ **امْتِعَاضِهِمْ** كلما وُجد من القوى التنفيذية (السلطات الحاكمة) في المجتمعِ ما يَمَسُّ الكلمةَ الحق، أي ما يَمَسُّ العقيدةَ والأفكار المتعلِّقة بِها، أو كلما ظهر تحكُّم من هذه السلطات وفقَ مصالحها وهواها.
4. وهذا الفهمُ للحركات الجماعيةِ يقتضينا أيضاً دراسةَ الحياة في المجتمعِ ومعرفة علاقة الأمة بالقائمين على سُلطانِها، وعلاقة هؤلاء الحاكمين بالأُمة؛ وقِوَامُ كلٍّ من العلاقتين، وحقيقته التامَّة في نظرِ الإسلام من الناحيتين الفقهية والسياسة الشرعية، أي من جهةِ الأفكارِ والآراء والأحكامِ التي دعا إليها الإسلامُ، وموازنة ما عليه المجتمع، وما تعرَّضت له هذه الآراءُ والأفكارُ والأحكام من تغييرٍ أو تحريف أو تضليل أو اجتهاد. ثم دراسة هذا الاجتهادِ في الفرُوعِ والأصُول، وهل تَمَّ بطريقةٍ صحيحة معتبرة، وهل يقرُّه الإسلامُ أم لا.
5. ويقتضينا أيضاً فهمُ الحركات الجماعية دراسةَ الحالة النفسيَّة للأمة؛ وهي تشاهدُ الآراءَ والأفكار والأحكام الإسلاميةَ تَغِيضُ في هذه الحياةِ التي تعيش عليها، والتي يقيمُها لها السلاطينُ بنظام حُكم يقوم على القوَّة والْمَكْرِ والمالِ. أي معرفة حقيقةِ إحساس الأمة ومشاعرها تجاهَ مخالفةِ الحاكمين للمبدأ الذي آمنَتْ به، وهو الإسلامُ.
6. ويقتضي ذلك معرفةُ مَيلِ الأمة نفسها بوجهٍ عامٍّ، ونظرتِها لهذه النُّظم القائمة

في تجمُّعاتِها وكيف تطبقُ عليها، والتي في نسَقِها تُهدِّدُ إسلامَ الأمة بالزَّوال، وتُرديهَا هي في هوَّةِ الشَّقاء والحرمان، ويتجلَّى أثرُ ذلك في معرفة مَيلِ المفكِّرين في الأمة ومدى تقبُّلهم للنظامِ الفاسد الذي يطبَّقُ عليهم، وهل أثارَ فيهم التَّذَمُّرَ، وكيف يتعاملون معه، فهل تأثَّروا بالإغراء أو التهديدِ، ومدى انسياقهم مع هذا الإغراءِ، أو خُضوعِهم لهذا التهديدِ.

مَا يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الإِصْلاَحِ للتَّغْيِيرِ:

في ختام هذا المحور نقول: إن استئنافَ الحياة الإسلاميةِ قضيةٌ قائمة في إحساسِ ومشاعر وفكرِ الواعين من أبناء الأمة الإسلامية، ويجب أن تكونَ هذه القضيةُ ماثلةً في إحساسِ جميع الأُمة ومشاعرِها وفكرها؛ ولكن مِن طبيعة الناس التفاوتُ في التعاملِ مع الواقع والوقائعِ بحسب ما هيَّأهم الله به من قُدرات وقابليَّات. وإذا عُلِمَ ما تقدَّم، فإنه يجب على أصحابِ التوجُّه الإسلامي في الإصلاح من أجل التغييرِ الالتفاتُ إلى حقيقةِ ما هم عليه، وهل يؤدِّي الواجبَ الشرعي المكلَّفين به أم هم دون ذلك. وبمعنى دقيق هل أدرَكُوا كيف تقبَلُ الأمة الدعوةَ وكيف تتفاعلُ معها، وفضلاً عن ذلك هل يتوفَّر فيهم ما يأتي:

1. معرفةُ الفئةِ أو الطائفة أو المنظَّمة أو الهيئةِ أو الحركة... أو ما إلى ذلك من أسماء، هل فريقُ العمل القائم في دوائرِها يعرفُ نفسه ومتحقِّقٌ من أنَّه يتمتَّع بالإحساسِ الْمُرْهَفِ اللَّطيف في التعامُلِ مع إحساسِ الأمة وأنه قادرٌ على التعبيرِ عن مشكلتها وقضيتها؟ وهل يتمتَّعُ الفريقُ بالتفكيرِ العميق في قضايا الأمَّة أم أنه يأخذُها بالشكلِ السطحيِّ الساذج؟ وهل يمتلكُ الفريق بأفرادِهِ وكيانه الإخلاصَ الخالصَ؛ أي مطابقة العلمِ العملَ وتعبيرَ العملِ عن العلم بأجواءٍ إيمانية مُدرِكَةٍ للصِّلة باللهِ أم أنه دون ذلك؟
2. معرفةُ الفريقِ لنفسهِ أن الإجراءات التي تقومُ في المجتمع لم تُضْعِفْ إيمانَهُ بالإسلامِ وشريعته ومنهاجه، وأن جميعَ ما يحصلُ من إغراءاتٍ وتَهديدات وإرهاب، ومِنَحٍ وَمِحَنٍ لم يؤثِّر فيه سلبياً.
3. تحققُ الفريقِ من نفسه أنه محافظٌ على قيَمِهِ الذاتية تمامَ المحافظة، وأن منطقةَ

إيمانه آمنةٌ، وأن تشبُّعَه بالأفكارِ الإسلامية العميقة، وتبَنِّيه للمصالحِ العامة، وشعورهِ بالمسؤولية، كلُّ ذلك كاملٌ، واثق من نفسهِ أنه قد جعلَ

الإسلام في حصنٍ حَصِينٍ من نفسه، ومهما لَحِقَهُ من تَعَسُّفٍ وَجَوْرٍ وَشِدَّةِ إرْهَابٍ.

4.ويتحقَّقُ الفريقُ من نفسهِ أيضاً، بأنه قد وطَّدَ نفسه وعزمَ عليها على أن يضطَلِعَ بالمسؤوليَّة، مع تقديرهِ لجميع النتائج واستعدادهِ لتحمُّلها.

خَاتِمَةُ الْمِحْوَرِ الأَوَّل:

هذا البحثُ في الحركاتِ الجماعية الْمَأْخُوذ من الخبرةِ التاريخية والدرايةِ الواقعية؛ يرشِدُ إلى حقيقة طريقةِ السَّير للفريق الإصلاحي الْمَبْدَئِيِّ من أجل التغيير، باعتبارهِ حركةً جماعية، وليتأكَّد من نفسهِ أنه سائرٌ في الطريقِ الطبيعي، ومستكملٌ لشرائطِ العمل النَّهضَوِيِّ الإصلاحي في التغييرِ.

وهذا البحثُ والنظر يُعِينُ الفريقَ على تخطِّي الصِّعاب وتعديل المسَارِ في طريق استئنافِ الحياة الإسلاميَّة، حتى إذا لُوحِظَ فيه تَنَكُّبٌ، أو لوحظ أن الدراسات كانت تقتضي تَعدِيلاً في كيانه، أي في أجهزةِ فريق العمل، أو مُرونةً في السيرِ، أو صلابةً في الكفاح، اتخذَ الفريقُ الأساليبَ التي تَضْمَنُ له أداءَ رسالته في إنْهَاضِ الأمة، وفي جعلها حاملةً لهذه الرسالةِ الإسلامية إلى جميعِ الشُّعوب والقبائلِ وأُمَمِ العالَم. وعلى هذا فإن السَّيرَ في طريقِ استئناف الحياة الإسلامية يحتاجُ إلى كثيرٍ من الإدراك والوعي على المبدأ، وإلى كثيرٍ من تقييمِ الكفاءة والصلاحية للفرد والجماعة والأُمة، والتحقُّق من ذلك ضرورةٌ واقعية فضلاً عن كونه ضرورةً شرعية للقيام بالمطلوبِ الشرعيِّ حسب القدرة على التكليف الشرعيِّ،

وفي الحديث: [أَكْلِفُواْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيْقُونَ] [1]، وملاحظةُ ذلك من ضروراتِ الإعداد والاستعداد أيضاً.

وإذا عُرف هذا، فسيكون الجواب عليه هو التقييم الموضوعي لحال الأمة في حاضرها، وواقعها المستعد للتمكين، ومعالجة قضاياه هو أصل من أصول الإصلاح من أجل التغيير، وإلا كانت الحركات الإصلاحية مجردة عن موضوعها وستكون حركات ردود فعل متعجلة لا تحقق المطلوب.

ثانياً: مَبْدَأُ الإِصْلاَحِ مِنْ أَجْلِ التَّغْيِيرِ فِي الْمُجْتَمَعِ؟

السؤالُ: من أين يبدأ الإصلاحُ والتغيير في المجتمعِ من الفرد أم نبدأُ بالمجتمعِ كجماعة، وأيُّهما أسهلُ الإصلاح الفردي أو الجماعيُّ؟

الجواب: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾[2] وأولُ ما ابتدأ الوحي ابتدأَ برسولِ الله مُحَمَّد (ﷺ) فقال اللهُ له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. وبعدَ رسول اللهِ (ﷺ) انتشرَ الإسلامُ في الأرضِ، فكانت دولةُ الإسلام الأولى بالحكومةِ النبويَّة، بعد أنِ انتقلت الدعوةُ بعدَّة مراحل، أو تحديداً مراحل ثلاث:

الأُولى: اعتناقُ الإسلام عقيدةً من الله فيها الشريعةُ والمنهاج، فحملَهُ الناسُ مع رسولِ الله (ﷺ) يؤمنون به ويعدُّون من أنفسهم أسبابَ الثباتِ على الدَّعوة.

المرحلةُ الثانية : حَمْلُ هذه العقيدةِ بشريعتها ومنهاجها إلى الناسِ بُشرى وهدى، ليؤمنوا بِها وينفِّذونَها على أنفسهم بمعاونةِ الرسول مُحَمَّد (ﷺ) على إنفاذِها فيهم.

المرحلة الثالثة : إقامةُ الحكومةِ النبويَّة بالدولة الإسلاميةِ في المدينة المنَوَّرة، واستلامِ السلطة فيها للمسلمين وإعلاءِ السِّيادة فيها للشرع.

ومن الدراسةِ والاستقراء، نجدُ أن الدعوةَ إلى الإصلاحِ والتغيير تتكامَلُ بعملِ الأفراد بما يصلِحُهم لجزئيَّة الجماعةِ، وبتعاون الجماعةِ بما يُنهِضُ الأمةَ؛ فالعملُ الدعوي فعلٌ مقصود يسلكُ مجالات التربية والاجتماعِ والسياسةِ بما يؤدِّي

(1) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب القصد والمداومة: الحديث(6465). ومسلم في الصحيح: كتاب صلاة المسافرين: الحديث (782/215).

(2) سبأ/ 46.

إلى إصلاحِ الفرد لجزئيَّة التغييرِ الجماعي في الأمة، وبما يفعِّلُ الجماعةَ إلى ممارسةِ العمل الاجتماعيِّ السياسي لنهضة الأمَّة إلى كلمةِ الله الواحدة، فهو أمرٌ لازم للفرد والجماعةِ؛ يتكاملُ بأهليةِ الفرد لأنْ يكون جُزءاً من كلٍّ، وبأهلية الجماعةِ في عُرفهم العام لأنْ تكون حاضنةً لهذا الجزء حين أدائهِ الدورَ المسؤول طاعةً لله عَزَّ وَجَلَّ.

ولكي نعيِّن كيف السبيلُ من البدايةِ لسير العمليةِ الإصلاحية في تغييرِ المجتمع، والطريق إلى لُحْمَةِ الفردِ والجماعة في حركةِ الإصلاح والتغيير التي تنهضُ بالأمة، فإنَّ نَهج النهضةِ يتَّضِحُ بما يأتي:

1. **اهْتِدَاءُ الْفَرْدِ إلى مَا يُصْلِحُهُ لِجُزْئِيَّةِ الْجَمَاعَةِ:** الاهتداءُ إلى الكلمةِ الواحدة التي تشتملُ على جميعِ الكلامِ (المبدأُ)، من قِبَلِ شخصٍ يصلحُ لها ومؤهَّل لحملِها، وهو أحدُ اثنين:

الأوَّلُ: رسولٌ مُجتبَى ونبيٌّ مصطفى، يختارهُ الله لحملِ الرسالة وأداءِ الأمانة فيوحِي إليه بإذنه ما يشاءُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ﴾[1]، ولقد خُتمت الرسالات بسيدنا الرسول مُحَمَّد (ﷺ) فلا نبيَّ بعده، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[2].

الثاني: شخصٌ فائق الفكرِ والإحساس من أهلِ العلم، يتفاعلُ مع الكلمة المنَزَّلة في الكتاب والسُّنة، فتشرِقُ في ذهنهِ بأفكار وأحكامٍ يستنبطُهما باجتهادٍ صحيح، حتى تتبلورَ فيه بنظامِ كلِّ شيء، وتصبحُ واضحةً لديه، وحينئذ توجَدُ واقعياً نقطةُ الابتداءِ، فيبدأُ منه الإشعاعُ بالمطلوب العقيديِّ والعملي ليُنيرَ الطريقَ للإصلاح والتغيير، وهؤلاء هم العلماءُ والمتعلِّمون الذين يغرسُهم الله في الأمة ليستعمِلَهم في طاعتهِ.

2. **تَكَاثُرُ الأَفْرَادِ الْمُهْتَدِينَ:** تتكاثرُ هذه النقطة في الجماعةِ، تكاثراً بطِيئاً أوَّل أمرِها، فيوجَدُ فيها نقاط أُخر، أشخاصٌ آخرون، ويكوِّنون نقاطاً ملتحمةً مع نقطةِ الابتداء، ويتَّصِلون ببعضهم اتصالاً كلِّياً بالكلمةِ المنَزَّلة الطيِّبة عن طريقِ

(1) الحج/ 75.
(2) الأحزاب/ 40.

التعلّم والدرسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَاكُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1] فتتكوَّن منهم الحلقةُ الأولى التي تتمحورُ على الكلمةِ (المبدأ)، وتكون هي وحدَها الرابطَ الوحيد فيما بينهم، بل القوَّة الوحيدة الجاذبة لَهم حولها.

وهذا كان في بدءِ الإسلام لربِّ العالمين على عصرِ سيدنا الرسول مُحَمَّد (ﷺ)، فكان أحدُهم يقول عن نفسه: [كُنْتُ رُبُعَ الإسْلاَمِ] وآخر يقول: [كُنْتُ سُدُسَ الإسْلاَمِ]. أما في عصرنا الحاضرِ، فعودةٌ على بدءٍ، فكما بدأَ الإسلامُ غريباً، فعاد غَريباً ولكن بأساليب جديدة، فاحتاجَ العلماءُ إلى الأساليب والوسائلِ الجديدة الملائمة للواقعِ، ولكن بنفسِ الطريقة ومبدأها العقيديِّ.

3. **صِفَةُ الطَّائِفَةِ الْمُهْتَدِيَةِ فِي بَدْءِ نُشُوئِهَا:** مما يلاحظُ على الحلقةِ الأُولى، أنَّها غالباً تكون قليلةَ العددِ، بطيئةَ الحركةِ في أوَّل الأمرِ، ثم إنَّها ستُعاني الغُربةَ، لأنَّها مع كونِها تنطلقُ من معطياتِ الكلمة المنَزَّلة (المبدأُ)، وتمارِسُ الاجتهادَ بالطريقة الصحيحة؛ وأنَّها تعبِّرُ عن إحساسِ المجتمع الذي تعيشُ فيه، إلا أنَّ تعبيرَها يكون بألفاظٍ ومَعانٍ غيرِ معتادة، أي تخالِفُ ما اعتادَ المجتمع سماعَهُ من ألفاظٍ ومعان؛ وتكون لها مفاهيمُ جديدة، بما وصلت إليه من أفكارٍ وأحكام فيها الجدَّة والجديد أيضاً، فتخالِفُ مفاهيمَ المجتمع السائدة وإنْ كانت تعبِّرُ عن أحاسيسهِ، لأن السائدَ في المجتمعِ هو الأفكارُ والأحكام المغلوطة الموروثةُ التي عَلِقَ فيها كثيرٌ من الأدرانِ والمفاسد، وفي الحديث عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا موقوفاً وهو مرفوعٌ حكماً، قال: [كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمُ الْفِتْنَةُ، يَهْرَمُ فِيْهَا الْكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً، فَإِذَا غُيِّرَتْ! قَالُواْ: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ][2]. أو أنَّ هذه المفاهيم لَحِقَ بِها التحريفُ والتغيير كما في حديثِ عوف بن مالك الأشجعيِّ؛ أن رسولَ الله (ﷺ) نظرَ إلى السَّماءِ يوماً فقال: [هَذَا أَوَانٌ يُرْفَعُ الْعِلْمُ] فَقَالَ لَهُ لَبِيدُ بْنُ زِيَادٍ: يَا رَسُولَ اللهِ! يُرْفَعُ الْعِلْمُ وَقَدْ أُثْبِتَ، وَوَعَتْهُ الْقُلُوبُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): [إِنْ كُنْتُ أَحْسَبُكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ

(1) آل عمران/ 79.

(2) رواه الدارمي في السنن: المقدمة: باب تغير الزمان وما يحدث فيه: النص (185).

الْمَدِينَةِ!!] ثم ذكرَ اليهودَ والنصارى على ما في أيدِيهم من كتابِ الله[1].

ولذلك تكون هذه الحلقةُ كأنَّها غريبةٌ عن المجتمعِ، ولا ينجذبُ إليها في أوَّل الأمرِ من الناس إلا مَن كان فيه الإحساسُ قويّاً إلى حدٍّ أنه أوجدَ فيه قابلية الانجذابِ إلى جِرْسِ الكلمةِ المحرِّك لإحساسه وشعورِه.

4. **ضَرُورَةُ التَّفْكِيرِ الْعَمِيقِ:** يكون تفكيرُ هذه الحلقةِ تفكيراً عميقاً، وطريقتُها في التعاملِ مع الواقع للقيام بمسؤولياته جذريَّة، فتبدأُ من الأسُس والأصولِ، أي من الثوابتِ والقواعد، ولذلك ترتفعُ هذه الحلقة عن الواقعِ السيِّء الذي تعيشُ عليه الأمة، وتحلِّقُ في الأجواءِ العُليا، وتنظرُ إليه وتبصر الواقعَ الذي تريدُ نقلَ الأمة لتعيشَ عليه، أي تبصرُ الحياةَ الجديدة التي تريدُ نقلَ الأمة إليها، كما أنَّها تبصرُ الطريق الذي تسلكهُ لتغييرِ هذا الواقع. كالذي يصعدُ رَبْوَةً وينظرُ سَير الناسِ في نَهج الطرائق المتشابكةِ المختلطة وهو يبصرُ الطريقَ الصحيح.

ولذلك فإن الحلقةَ الأُولى تُبصِرُ ما لا يبصرهُ الناس، في حين أن أكثرَهم يبصرُ أمامه فقط؛ فيصعبُ عليه إدراك تغييرِ الواقع إدراكاً صحيحاً، لأن المجتمعَ المنحطَّ بتخلُّفه عن الإسلامِ يكون الفكرُ عنده في بداءتهِ، فتجولُ في ذهنهِ صورةُ الواقعِ، ثم يقيسُ الأشياء قياساً شُمولياً مغلوطاً، ويكيِّفُ نفسه حسبه، فلا يدركُ المصالِحَ الحقيقية التي تفرِضُها الكلمة (المبدأُ)، ولذلك يجعل منافعَهُ دائرةً مع هذا الواقعِ لا مع الكلمة. فهو يعيشُ التخلُّفَ عن الإسلامِ، والتبعيَّة لحضاراتِ الأُمم الغازيةِ.

وعلى هذا لا بدَّ من انتباهِ المبصِرين لأنفسهم، أنَّهم يحتاجون زيادةَ الجهد في التفكيرِ العميق بقصدِ الرُّؤية الأكثر وُضوحاً وإنارةَ الطريقِ للآخرين.

5. **ضَرُورَةُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ مَصْدَرِ التَّفْكِيرِ وَمَوْضُوعِهِ:** تجعلُ الحلقة الأولى الواقعَ موضع التفكيرِ لتغييره حسبَ الكلمة التي آمَنت بِها، لا مصدرَ التفكيرِ، أي لا تجعلُ ما آمَنَتْ به دائراً مع الواقعِ، ولذلك يحاولُ المهتدون تغييرَ الواقع وتشكيلَهُ وإخضاعه لإرادتِهم، ليجعلونه دائراً مع ما آمَنُوا به ويفرضهُ المبدأُ الذي اعتنقوهُ،

(1) أخرجه ابن حبان في الصحيح: كتاب التاريخ: باب إخباره (ﷺ) عما يكون في أمته من الفتن والحوادث: الحديث (6720) وإسناده صحيح.

فيحدُث من جرَّاء ذلك بين المجتمع وتفكيرِ الحلَقة تباينٌ في فهمِ الكلمة الحق وإدراكِ تفسيرها للحياة، فيحتاجُ هذا التباينُ إلى التقريبِ؛ أي زيادة الشَّرح والتعريفِ بالمبدأ تجاهَ الآخرين.

6. **الْقَاعِدَةُ الْفِكْرِيَّةُ الثَّابِتَةُ لِلتَّفْكِيرِ الْجَمَاعِيِّ:** يقومُ تفكير النُّخبة من العلماءِ على أساسِ قاعدة ثابتةٍ، تتَّجهُ بفكرِهم إلى مسارٍ محدَّد بدافع إيمانِيٍّ ثابتٍ يساعدُهم على إخضاعِ الواقع وتغييره، وهذه القاعدةُ هي: أن الفكرَ الذي يجولُ في أذهانِهم لا بدَّ أن يتَّصِلَ بالعملِ، فيؤدِّي إلى الفعلِ المقصود لا محالةَ. وأن التفكُّر والفعلَ، أو الفكرَ والعمل لا بد أن يكونا من أجلِ غايةٍ معينة يهدِفَان إليها، فيكون الفكرُ يوصل إلى عملٍ من أجل غاية، فيوجد من جرَّاء ذلك تجسيداً للكلمة (المبدأ) في الواقعِ، ويوجدُ من جرَّاء استناد الفكرِ إلى العقيدة، أي من جراء انبثاق الفكرِ (كل ما جالَ في الذهنِ وله واقعٌ) عن المعتقَدِ الإيماني، فإنه يوجد من جرَّاء ذلك جواً إيمانياً ثابتاً يخيِّمُ على الفكرِ ويساعدُ على إخضاعِ الواقع وتغييره، لأن هذا الفكرَ سيشكِّل كلَّ ما يَمُرُّ به بشَكْلِه هو.

هذه العمليةُ، عملية تشكيلِ الفكر للواقع بشَكلِهِ، هي عمليةُ الإصلاح والتغيير، التي يقومُ بِها المهتدونَ من النُّخبة والحلقة الأولى، بخلافِ المجتمع المنحطِّ المتخلِّف عن الإسلامِ، والتابعِ للثقافات الوافدةِ والخاضع لما تعلَّق به من مفاسدِ وأدران، فإنه لا توجدُ لفكرِهِ قاعدةٌ، لأن المجتمعَ المتخلِّفَ الذي يعيشُ التبعيَّة لا توجد لفكرِهِ قاعدة، فهو بمجموعهِ لا يعرفُ الغايةَ التي يفكِّر ويعملُ من أجلها، وتكون الغايةُ عند أفرادِهِ آنيةً أنانيَّة تدورُ حول مصالحهم ومنافعِهم الشخصية. ولذلك لا يوجدُ عندهم جوٌّ إيماني، فيضطرُّون لأن يتشَكَّلوا بما يحيطُ بِهم، لا أنْ يشكِّله الفردُ منهم بشكل المبدأ، فتجد عامَّة الناس يكرِّرون ما يُمْلَى عليهم أو يردِّدون ما يسمعونَهُ من غير إمعانِ نظر أو حتى تفكُّرٍ بسيط أكثرَ من التفكيرِ السطحي. ومن هنا يأتي نوعٌ من التضارُبِ بين تفكيرِ النُّخبة أو الحلقة الأولى للإصلاحِ وبين تفكير المجتمعِ الذي اعتادَ السطحيَّة في التفكيرِ، والذي تعيشُ فيه النُّخبة في أولِ الأمر.

7. **ضَرُورَةُ الْحَرَكَاتِ الْمَقْصُودَةِ:** وإذا أُدرِكَ أن عملَ الحلقة الأولى والنُّخبة الواعيةَ

إيجادُ الجوِّ الإيماني الذي يفرضُ طريقةً من التفكيرِ، فعليها لتحقيقِ ذلك وإنجازه أن توجِدَ حركاتٍ مقصودةً في الجماعة، لأجلِ تَنْمِيَةِ نفسها تنميةً سريعة، ولتنقيةِ جوِّها تنقيةً تامَّة، حتى تَبني كيانَها العضوي بناءً سليماً وبسرعةٍ فائقة، وأن تتحوَّل من حلقةٍ أُولى إلى كيانٍ مُتكامل يفرضُ نفسه على المجتمعِ بحيث يصبحُ فاعلاً فيه لا مُنفَعلاً.

8. **طَرِيقَةُ إِيْجَادِ الْحَرَكَاتِ الْمَقْصُودَةِ:** والطريقةُ لإيجاد الحركاتِ المقصودة هي بعدَ الدراسةِ الواعية للمجتمعِ بإنسانهِ ونظامه والرأيِ العامِّ فيه والأعرافِ السائدة، وبعدَ الدراسة للأشخاصِ وللأجواء، وبعد أن يتهيَّأَ الواعون بالحذرِ لمنع أنْ يتسلَّلَ إلى كيانِهم وهيئتِهم عناصرُ فاسدةٌ، أو عنصرٌ فاسد، وبعد الحذرِ من أن يحصلَ خطأٌ في تركيبِ أجهزتِهم في أمانَةِ مجلسِ الشُّورى أو مجلسِ الأمانة العُليا أو اللِّجان أو المعاونين أو المساعدين، أي الحذرِ من أن يحصلَ خطأٌ في أيِّ جهازٍ من أجهزة كيانِ الهيئة أو المنظَّمة للنُّخبة الواعية التي يُكوَّن الكيان بحسبها، وحتى لا يميلَ بالكيان إلى وجهةٍ غير صحيحة، وحتى لا تنشطرَ على نفسها كهيئةٍ أو كيان علميٍّ عملي إصلاحي من أجل التغيير.

بعد كلِّ هذا يمكن أن تتكوَّن الحركاتُ المقصودة لقيادةِ الجمهور إلى النَّهضة بعملية الإصلاحِ الفكري بين المسلمين والتغييرِ السياسي في الواقع الْمُرِّ الذي تعيشهُ الأمة عن طريق العمل الفكري للعقول والعمل السياسي لتغيير الأحداث؛ وبالحذر من العملية السياسية للعبة.

ويلاحَظُ أن هذه الحركات المقصودة متغيِّرة بحسبِ المستجدَّات والنوازل والأحداثِ، فهي فعلٌ حَركي اجتماعي سياسيٌّ في جسمِ الأمة للتعامل مع الواقعِ، يؤثِّرُ فيه الفكرُ والثقافة ويوجهه الرأيُ الأقوى، أو رأيُ الفئةِ الأقوى في الأمة. لهذا سوف تحرصُ الفئة المختارة والهيئة الواعية لحسِّ الأمة وشعورِها على إعطاءِ الرأي القويِّ المربوط بالعقيدةِ الإسلامية التي اجتمعت الأُمة الإسلامية على الإيمانِ بِها، فالرأيُ القوي يستمدُّ قوَّته من العقيدةِ التي سبَّبت إليه وانبثقَ عنها أو تفرَّعَ منها. فتحرصُ الهيئة فريق العمل الإصلاحي على

دراسةِ الواقع دراسة واعيةً بأشخاصهِ وأجوائه في الرأي والفكر، ومعالجتهِ معالجةً واعية للمبدأ شريعةً ومنهاجاً بحسبِ الثوابت التي عرفَتها الأمةُ واجتمعت عليها وتبنَّتها الهيئة للعمل بِها.

9. **صِفَةُ الرَّابِطِ بَيْنَ أَعْضَاءِ الْجَمَاعَةِ الْمُهْتَدِيَةِ:** وعلى هذا يتحتَّمُ أن يكون نظامُ صناعة الرأي وتبني الأفكار السياسية في حركاتِ الهيئة العلمية أو كيانِ الفئة المختارة هو العقيدةُ الراسخة الثابتة، وما كانت هي سَبباً فيه، وأن تكونَ الثقافةُ الناضجة المتبنَّاة هي الرابطُ بين أعضاءِ الفريق الإصلاحي، وأن يكون نظامُ الرأي والثقافة المتبنَّاة هما القانون الذي يسيِّرُ جماعته، بتناسُقٍ يفرضهُ الاعتقاد الصحيح لهما والفقهُ فيه، ويجعل أعضاءَ الفريق النهضوي بوضعٍ معيَّن في جسمِ هذا الكيان، مما يجعلُ كيانَ القومة في حركةٍ صحيحة سَليمة في جسمِ الأمة وكيانِها الاجتماعي المعقَّد.

وإذا عُلم أن القانون الذي يسيِّرُ فريق القومة من أجل التغيير هو العقيدةُ الراسخة والنظام المنبثِقُ عنها والأفكار المتفرعة منها، فيتحتَّمُ أن لا يكون القانونُ الإداري أو النظام الداخليُّ المسطَّرُ على الورقِ مسيِّراً له بوصفه المبدئيِّ؛ لأن النظامَ الداخلي قانونُ إدارةٍ فنِّيّ يحرِّكُ عضويةَ الهيئة والفئة المختارةِ إدارياً لا فكريّاً، فهو جهازٌ وظيفي لا جهاز الرأيِ والفكر والفقه؛ أي هو نظامٌ وظيفي للأعضاءِ وليس نظاماً في الرأيِ والفتوى (السياسة الشرعية) والسياسة.

10. **طَرِيقَةُ تَقْوِيَةِ الرَّابِطَةِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْجَمَاعَةِ:** وأما طريقةُ تقوية العقيدةِ والثقافة، فهي التعليمُ والدراسة، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1] أي طريقةُ الدراسة والفكرِ ليتكَّون العقلُ تكويناً خاصّاً، وليوجدَ الإدراكُ الفكري المتَّصِلُ بالشعورِ. ولا بدَّ هنا من بقاءِ المناخ الإيمانِيِّ بأجوائهِ الفكرية مُخَيِّماً على فريق القومة أو المنظَّمة بتكوينِها الجماعيِّ، حتى يكون الجامعُ لهما أمرَين اثنين: هما الإيمانُ والإدراك، أي حركَتي القلب والعقلِ،

(1) آل عمران/ 79.

حركة القلبِ بالإيمان النابضِ الدافع للإحساسِ والشُّعور والفكر إلى دراسة أسبابِ النهضة من المبدأ دراسةً عميقة، وحفظِ نتائجها الثقافية واستظهارِها وفهمها. فإذا سارَ المسلمون في هيئاتِهم ومنظَّماتِهم على هذه الطريقةِ، فسيَصِلُونَ حتماً إلى الإعدادِ الصحيح والاستعداد ذا الرابطة المتينة التي تُمكِّنهم من الثَّباتِ أمامَ التحديات والنوازلِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[1].

11. **مِثَالٌ لِتَقْرِيبِ مَفْهُومِ عَمَلِ الْجَمَاعَةِ:** ومن هنا يصحُّ القول: بأنَّ علاقةَ الفردِ بالجماعة والجماعة بالفردِ في ممارسة طريق الإصلاحِ والتغيير هي كعلاقةِ الْمُوتُورِ الصناعيِّ بالذِّراع حين يتحرَّك لإنجازِ عمل. فعلاقةُ الفردِ بالجماعة، والجماعة بالفرد في حركتَي الإصلاحِ والتغيير هي علاقةُ الجزءِ العضويِّ بالكلِّ الجسمي، يحرِّكُهما الإيمانُ بالكلمة الأساس (المبدأ) فيدفعُ بكيانِهما المترابط بالعقيدة والثقافةِ إلى إنجاز الأعمال، وتتَّضِحُ صورة ذلك بما يأتي:

النخبةُ (الفئة المختارة)؛ أي الحلقةُ الأولى لفريق القومة، تشبهُ الموتورَ الصناعيَّ من جهةٍ وتخالفهُ من جهةٍ أخرى، ووجهُ شبَهِها فيه هو:

أ. إنَّ الموتور الصناعيَّ للغازِ مثلاً، له طاقةُ حرارةٍ، تتولَّدُ من الشُّعلة والبَنْزين في الحركةِ الموتوريَّة. وهذه الطاقةُ الحرارية تنتجُ ضَغطاً في الهواءِ. وهذا الضغطُ يدفع الذراعَ، وهو المحرِّك، وهو الذي يفرضُ حركتَهُ على القطعِ الأخرى، فتدورُ الآلة.

وعلى هذا، فإن وجودَ الشُّعلة والبنْزين والحركةِ الموتورية هو الأصلُ؛ لأنه بتوليدهِ لطاقة الحرارةِ ينتجُ ضغطاً، وهذا الضغطُ يفرِضُ حركتَهُ على باقي القطعِ، ويديرُ الموتورَ. فإذا وقفت حركةُ الموتور وقفت جميعُ القطع. وعليه فلا بدَّ من وجُود الشُّعلة والبنْزين والحركةِ الموتورية حتى يدورَ الموتورُ، ويُدِير جميعَ الآلة.

(1) النساء/ 66.

وكذلك النخبةُ من الفئة المختارةِ المتمثِّلة بالحلقةِ الأولى، فإنَّها تتحركُ بالفكرةِ، فالفكرة فيها بمقامِ الشُّعلة، والإحساسُ في الأشخاصِ الواعين الذين تتكوَّن منهم الحلقة بمنْزلة البنْزين، والإنسانُ المتلَقِّي الذي يتأثَّرُ إحساسهُ بالفكرةِ هو الحركةُ الموتورية.

وعلى هذا، فإن الفكرَ بالمعتقدِ الإيماني – الذي يفرضهُ الإسلام (الواحدة الموعوظ بِها)– والثقافة المتبناةُ حين يتَّصل بالإحساسِ في الإنسان النَّابهِ يوجد طاقةَ الحرارة، أي حرارةَ الإيمانِ، فيدفعُ النخبةَ إلى الحركةِ. وحركة النخبةِ هذه تفرضُ على سائرِ أجزائها من أفراد وحلقاتٍ ولِجَانٍ وغير ذلك، فتتأثرُ بحرارتِها، فتتحرَّكُ، وتدور جميعُها دورانَ الآلةِ. وهنا يبدأُ سَيرُ الفئةِ المختارة بالحركة، فيأخذُ دورَ النمُوِّ في تشكيلِ أجهزته.

إن المهمَّ في هذا المثالِ وصورته، أنه لا بدَّ من انبعاثِ طاقة الحرارة أي إشعاعِ الإيمان من قيادة النُّخبة إلى سائرِ أجزاء الجماعة حتى تدورَ بمعطيات الإيمانِ بالعقيدة والثقافة في الوقائع والنوازلِ والمستجدَّات، كما هو الحالُ في حركة الموتورِ حتى تدورَ الآلة لإنجازِ شُغلٍ.

وهذا هو وجهُ الشَّبه بين الموتورِ الصناعي وبين قيادةِ الجماعة؛ أي فاعليَّة الجزء في الكلِّ بدافعِ الإيمان وبقوَّة الرابطةِ بين أجزاء الجماعة وأعضائها؛ أي بدافعِ حركة جميع أعضاءِ اللِّجنة التَّحضيرية للعملِ، أو الهيئة التأسيسيَّة له، أو أعضاءِ الحلقة الأولى، بوصفهم مع بعضهم جُزءاً من كلٍّ يشدُّ بعضه بعضاً. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا ﴾[1] فَيَعْلَمُ النخبةُ أنَّهم على الحقِّ الذي يُزهِقُ الباطلَ.

ومما يلاحظُ هنا؛ من جهةِ القيادة في الحلقة الأُولى للفريق، أنه لا بدَّ من توالِي اتِّصالِهم وحركاتِهم بباقي أجزاءِ الجماعة ليؤثِّروا في الكلِّ، أي لتؤثِّر حرارةُ النخبة في الجميعِ. فإذا اتَّصلوا عدَّة مرات ورأوا أن باقي

(1) الإسراء/ 82.

الأعضاءِ واللجان لم تتحرَّك إلا إذا حرَّكوها، فلا ييأسُوا، وليعلموا أن ذلك أمرٌ طبيعي، لأن الآلةَ لا تدورُ إلا إذا دارَ الموتورُ، وبُعثت الحرارة منه. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾[1].

ب. كلُّ هذا يجري في أوَّل الأمرِ ما قبل سيرِ الجماعة في الواقع، ويجب أن لا يستمرَّ على هذه الشاكلةِ؛ أي يجب أن لا يكون تحريكُ القيادة للأجزاءِ في الجماعة مؤثِّراً بحركة آليَّة دائماً، كما يفرضُ الموتور حركتَهُ على القطع في المحرِّك الصناعي، بل يكون التحريكُ أوَّل الأمر فحسب. أما بعد السَّير، فلا يكون كذلك. وهذا هو وجهُ مخالفة قيادةِ النخبة للموتور الصناعي، فإن الموتورَ الصناعي يظلُّ دائماً المحرِّكَ للآلة، وأما القيادةُ النُّخْبَوِيَّةُ فإنَّها موتورٌ اجتماعي، وليست موتوراً صناعياً، وأعضاءُ الجماعة وحلقاتُها ولجانُها هم من بني الإنسان، لا من الحديدِ أو الألمنيوم، وفيهم الحياةُ ويتأثَّرون بحرارةِ القيادة والثُّلة الواعية، أي يتأثَّرون بحرارة المبدأ الذي آمَنُوا به وتجسَّدَ في قيادتِهم.

وعلى هذا، فإن أعضاءَ الجماعة (جماعة فريق الإصلاح) بعد تفهُّمِهم للفكرةِ، واتصالهم بحرارةِ القيادة، يُصبحون جزءاً من الموتور، ويصبحُ حينئذ مجرَّد حركةِ النخبة من جرَّاء حرارة الإيمان ودوافعه، يبعثُ الحركةَ في أعضاءِ الجماعة كليّاً بعثاً طبيعياً، وفي الحديث عن أبي موسى (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: [الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً] وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ[2].

وحينئذ لا تبقَى القيادةُ وحدها هي التي تحمِلُ الحركةَ الدافعة، بل بنُموِّ أجزائها ولجانِها وتكامل تشكيلاتِها، تكون الجماعةُ كلها حاملةً للحركةِ في الإصلاح الاجتماعيِّ والتغيير السياسي.

---

(1) هود/ 112.

(2) رواه البخاري في الصحيح: كتاب المظالم: باب نصرة المظلوم: الحديث (2446).

وإذا حصلَ هذا على الوجهِ الصحيح، فإن الجماعةَ بأجزائِها ستسيرُ سَيراً استمرارياً، دون الحاجةِ إلى حركة دافعةٍ، لأن حرارةَ الإيمان في كلِّ جُزء من أجزائها منبعثةٌ من الإيمان بالعقيدة والثقافة المتبنَّاة، ومن الكلِّ الفكري الإيماني الشائعِ في جميع أجزاء الجماعة بدفُّقاته الشعورية ذات الحرارةِ الإيمانية.

وإذا عُلم هذا، فلا يقال: أيُّهما أسهلُ الإصلاح الفردي أم الجماعي؛ لأنه ليس هناك إصلاحٌ فردي، وإنما هي حركةٌ كلية في جسمِ الأمة بما يفعِّل أفرادَها لأن يكونوا جزئيةً صالحة في جماعتِها.

فإذا اتَّضحت هذه الرؤيةُ، اتسعَ الأفُق في العملِ النهضوي ليبدأَ فائقُ الفكر والإحساس باتخاذ أسبابِ الإصلاح والتغيير في المجتمع ابتداءً من نفسه، ثم ليُشِعَّ فيمن حولَهُ، والله ولِيُّ التوفيقِ.

ثَالِثاً: بَدْءُ عَمَلِيَّةِ الإِصْلاَحِ مِنْ أَجْلِ التَّغْيِيرِ

وبالضرورة يأتي الجواب على السُّؤَالُ الثَّالِثُ الذي يطرحُ نفسَهُ: مِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ الْمُصْلِحُونَ: مِنَ الْبَحْثِ عَنْ سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ أَمْ مِنْ مُعَالَجَةِ الأَمْرَاضِ الَّتِي أَصَابَتِ الْمُجْتَمَعَ؟

الجوابُ على هذا السؤالِ من وجهين؛ الأوَّل: من حيث معالجةُ الأمراض التي أصابت المجتمعَ، فإنه إذا عُلم الجواب أن المجتمعَ ناسٌ وعلاقات، فالأمراضُ التي أصابته، هي الأمراضُ التي أصابت الناسَ بأفرادهم بما أفقدَهم الجزئيَّة الصالحة للجماعة، أي أفقدَهم القدرةَ الواعية للفكرة عقيدةً ومعالجات، وما طرأَ على أذهانِهم من ضَعْفٍ في فهمِ الإسلام بوصفه شريعةً ومنهاج حياةٍ، وكذلك بما حصلَ مع العلماء والمتعلِّمين من خطأ في طريقةِ التعلُّم والدرس، وبما طغَى على أذهانِهم أنَّهم ما زالوا يعيشون في ظلِّ الدولة الإسلاميةِ، وغابَ عن أذهان الكثيرين منهم أنَّهم يعيشون في الْمُلْكِ الْجَبْرِيِّ منذ هَدْمِ الخلافةِ عام (1924م).

ولقد تقدَّم في الجوابِ على السؤالين الماضيين طريقةُ الإصلاح والتغيير بما يوصِلُ إلى استئناف الحياة الإسلامية بتفعيلِ العقيدة في حياةِ الناس عن طريق النُّخبة الواعية. ولهذا سنبدأ لا محالة بما يلي:

أوَّلاً: تَشْخِيصُ الأَمْرَاضِ الَّتِي أَصَابَتِ الْمُجْتَمَعَ:

أما الأمراضُ التي أصابت علاقات الناس، فهي ما أصابَ نظامَ ارتباطِ الناس في مصالحهم من مفاسد وأدران وانتقلَ إلى المشاعرِ بحيث تكوَّنت **صُعُوبَاتٌ** عديدة تقِفُ في وجهِ الدعوة إلى الإصلاح والتغيير. وهذه **الصُّعُوبَاتُ** هي ليست بالأمرِ العسير أو الذي لا يمكن التغلُّب عليه، بل حين معرفتها يسهلُ التغلب عليها، فهي أمراض غير مستعصية أو مستحيلة المعالجة، ويمكن إجمالها بما يأتي:

أ. تَنَاقُضُ نِظَامِ الإِسْلاَمِ مَعَ النِّظَامِ الَّذِي يُطَبَّقُ فِي الْمُجْتَمَعِ:

إنَّ نظامَ الإسلام هو نظامٌ تفرضه العقيدةُ الإسلامية بوصفه معالجات لمشكلاتِ الحياة، وطريقةً لممارسة العقيدةِ فيها، ببيان كيفيَّة تنفيذِ الأحكام الشرعية، والمحافظةِ عليها بدافع تقوَى اللهِ أو بقوَّة السُّلطة، وحَمْلِ دعوته إلى العالَم. فهو مع قِدَمهِ في الأمة، إلا أنه يعدُّ نظاماً جديداً للحياةِ بالنسبة للمجتمعِ الحاضر الذي اعتادَ النظام الرأسماليَّ أو أفكاراً منه. وهو في كلِّ الأحوال يناقضُ النظامَ الذي يطبَّقُ على هذا المجتمعِ حين انتقلَ حالُ الحكم فيه من الْمُلكِ العضوضِ إلى الْمُلكِ الجبريِّ، وهو النظامُ الذي اختارتْهُ الفئة الحاكمةُ للناس وفقَ منهج الحضارةِ الغربيَّة.

وعلى هذا فإن الفئةَ الحاكمة أو المنتفعةَ تجدُ في نظامِ الإسلام خَطراً عليها؛ وعلى وجودِ كيانِها أو مصالحه. فتعملُ لتقفَ في وجههِ ومحاربته بمختلف الوسائل: بالدعاية ضدَّهُ، أو مطاردة حَمَلَةِ الدَّعوة والمصلحين، أو استعمالِ الوسائل الماديَّة كالتأثيرِ على أرزاقهم أو قتلِهم. ولهذا كان على دُعاة الإسلامِ؛ وهم يعملون لإنْهاض الأمَّة؛ أن يعتصمُوا من الأذَى بكلِّ ما يستطيعون، وأن يجابِهوا الدِّعاياتِ المضَلِّلة بشرحِ دعوتِهم، وأن يتحمَّلوا كلَّ مَشَقَّةٍ في هذا السبيلِ. قال الله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1].

(1) النساء/ 71.

ب. اخْتِلاَفُ ثَقَافَةِ الإِسْلاَمِ عَنْ ثَقَافَةِ الْمُجْتَمَعِ:

تكوَّنت ثقافاتٌ مختلفة في المجتمعِ عبرَ الزمن، ووُجدت أفكارٌ متباينة موروثة ومعاصرة، إلا أنَّ إحساسَ الأمة بإسلامِها وثقافتها بَقِيَ واحداً، يفتقرُ إلى التعبيرِ الصَّادق عن حيويَّتهِ بثقافة صادقةٍ. ولهذا نجدُ أنه على الرغم من تكوِّن ثقافاتٍ عديدة، ولا سيما الثقافاتِ الغربية الوافدة، إلا أن الأمةَ بقيت ترفضُها وتَعَافُّها، لأنَّها تعبيرٌ معكوس عن احساسِها فلا يستسيغُها؛ ويَمُجُّها بذوقهِ الفطري الموروثِ عقيديّاً.

وعلى العكسِ من ذلك، نجد الثقافةَ الإسلامية تكون تعبيراً صادقاً عن أحاسيسِ الأمة، فسُرعان ما تقبَلُها وتُقبِلُ عليها وتتفاعلُ معها. غير أن الرأيَ العامَّ السائد في المجتمعِ بأجهزة الإعلامِ والمنهاج الثقافِيِّ في المدارسِ والمعاهد وسائر المنتديات، يكون سَائراً مع الثقافةِ الأجنبيَّة.

وعلى هذا فإنه لا بدَّ للمصلحين في ثقافتِهم من الدُّخول في دورٍ من العمل الدَّعوي الجريءِ مع الثقافاتِ الأخرى، والأفكارِ الأخرى، حتى يظهرَ للأُمة التعبيرُ الصحيح عن إحساسِها ومشاعرها، فتسيرَ معه لا محالة. وهنا تكمنُ الصعوبة، إذ لا بدَّ من تَصَادُمِ المصلحِين الدعاة فكريّاً وثقافياً بالأفكارِ والثقافات الشائعة. وهذا التصادمُ بين أبناءِ الأمة سيما منهم الذين تأثَّروا بالثقافةِ الأجنبية.

ولكي يعالِجَ المصلحون هذا الصِّدام بما لا يوقعُ خسائرَ في تأخيرِ السَّير، لا بد من السيرِ بطريقة لا تأخذ دورَ الجدلِ العقيم أو الصدام باستخدام القوة المادية (العسكرية)، بل يسيرُ المصلحون على طريقةِ **رَسْمِ الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ عِنْدَ الْخَطِّ الأَعْوَجِ.**

وقطعاً يعلمُ المصلحون أن الدخولَ في الجدلِ العقيم يُفقِدُهم الجديةَ في السيرِ والتأخير في إنجاز الأعمالِ، فضلاً عن ضياعِ الوقت الذي هو ضياعٌ لفُرَصِ التَّاريخِ بلحظاتهِ السَّانحة. وأن الجدلَ العقيم يثيرُ بين الناسِ الانقباضَ عن الدعوةِ، بل يؤدِّي إلى الأنانيَّة التي تُعمِي وتَصُمُّ عن إدراكِ الحقيقة؛ لأن الجدلَ العقيم يبعدُ الإضاءةَ عن إدراكها، ويوقعُ الإخوةَ المتشاكسين في النِّزاعات الجزئيَّة

والصراعات الشخصية الأنانيَّة، ويعلمون أيضاً أن الصدام المسلح يعطي المبرر للقوى المتسلطة بضرب المصلحين لا محالة.

وهنا لا بد أن يتخذَ المصلحون الأسبابَ الناجحة لشرحِ فكرتِهم وإذا تطلَّب الحال تبيينَ ما في الأفكارِ الأخرى من زَيْفٍ وما في الثقافاتِ الأخرى من بَاطِلٍ، وما في نتائجها من أَخْطَارٍ، وذلك عند الضرورةِ من غير استفزازٍ للمقابل.

وإذا حصلَ هذا، فإن الأمة سوف تنصرفُ عن الثقافاتِ الأخرى وتتجهَ نحو ثقافةِ المصلحين وأفكارِهم، بل ينصرفُ عنها أصحابُها أيضاً، بعد أن يظهر لَهم زيفُها إذا كانوا من المخلصين الواعين النَّزيهين.

وتعدُّ هذه العملية والحركةُ المقصودة في مواجهة الثقافات من أشدِّ الصعوبات وأشقِّ العمليات على المصلحين، مما يجعلُ إحداثَ التأثيرِ من جهتِهم في الأمة في المكانِ الذي تكثرُ فيه الثقافات الأجنبيةُ أكثرَ صعوبةً من الأمكنةِ التي تَقِلُّ فيها هذه الثقافات. وكانت قابليةُ النهضةِ في الأمكنة التي تقلُّ فيها نسبةُ المثقَّفين ثقافةً أجنبية أكثرَ من الأمكنةِ التي ترتفعُ فيها هذه النسبة. ولهذا كان على المصلحين أن يكونوا وَاعِينَ على حالِ الناس الذين يعملون للتأثيرِ فيهم، ليختاروا الطريقَ المناسب.

ت. وُجُودُ الْوَاقِعِيِّينَ فِي الْمُجْتَمَعِ:

من جرَّاء الفراغِ الفكري وجهلِ كثيرٍ من الناس بالثقافةِ الإسلامية، ثم لانتشارِ الثقافة الأجنبية والدعايةِ المضَلِّلة لها، من جرَّاء ذلك تسمَّمَت أذهانُ الكثيرين فوُجد الواقعيُّون، وهما فئتان:

الأُولَى: فئةٌ تدعو الناس إلى الرِّضا بالواقعِ والاستسلام له بوصفه أمراً حتمياً. وهذه الفئةُ أُصِيبَتْ بمرضِ التفكيرِ المعكوس، بأنِ اتخذت من الواقعِ مصدرَ تفكيرِها؛ فتستمدُّ منه حلولَ مشكلاتِها، ولا تبصرُ ما قبله ولا ما بعده ولا ما يجبُ فيه غيره.

أما طريقةُ معالجة هذه الفئةِ فتأتي بمحاولة التعمُّقِ معها في النظرِ، أي بمحاولة الفكرِ معها والبحث في المطلوب، حتى ترَى وتُدرِكَ أن الواقعَ إنَّما هو

موضوعُ التفكيرِ لتغييره فلا يُتَّخَذُ مَصدراً للتفكيرِ، ثم البيان لها أن مصدرَ التفكيرِ الشريعة والمنهاجُ. وبِهذا الإجراء يمكنُ أن ترجعَ عن فكرِها.

أما الفئةُ الثانية؛ فهي الفئة التي قال الله عنهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[1] وهي الفئةُ التي اعتادت التفكيرَ السطحيَّ، والتعاملَ الآنِيَّ مع الأشياء، وأُصيبت بمرض الكسلِ الجسمي والكسلِ العقلي وجمدت على القديمِ لِمجرَّد كونه قديماً وجدت آباءَها عليه، فهي الفئةُ الواقعية الحقيقية؛ لأنَّها من جنسِ الواقع المريض، فهي جامدةٌ فكراً. وهي الفئةُ الأصعب حين التعامل معها، ويعانِي منها الدعاةُ كثيراً.

أما طريقةُ معالجتها والتغلُّب على صعوبتِها فبمحاولة تثقيفِها، وبذلِ أقصى الطَّاقة في تصحيحِ مفاهيمها، وهي مع كونِها فئةً مُمِلَّةً، إلا أنه يجبُ الصبرُ عليها والأخذُ على يديها.

وقد يقالُ: هناك فئةٌ ثالثة تقفُ في وجهِ الدعوة، وهي فئةُ الْمُنْضَبِعينَ بالثقافةِ الغربية، فإنَّها قد عُولِجَتْ في الصعوبةِ (ب) حين بيانِ اختلاف ثقافةِ الإسلام عن ثقافة المجتمعِ.

ث. ومن الأمراض التي يعاني منها المجتمع وهي صعوبة تقف في وجه الدعوة والمصلحين: ارتباط الناس بمصالحهم الشخصية.

مع أنَّ هذا الأمرَ فطريٌّ وطبيعي أنْ يتأثرَ الإنسان بمصالحهِ، إلا أنه في الوقت نفسهِ يرتبطُ بإيمانهِ وثقافته الإسلاميةِ. ولأوَّل وَهْلَةٍ يبدو للمتلقِّي المبتدئ في التفهُّم أن هذه المصالح تتعارضُ مع الإصلاحِ والتغيير والدعوةِ إلى نظام الإسلام. ولذلك يحاولُ التوفيقَ بينهما.

ولمعالجةُ هذه الصعوبة والتغلُّب عليها، لا بد من أنْ ينتبهَ المرءُ إلى وجوبِ جعله الإصلاحَ والتغيير مركزَ دورانهِ ومحورَ تعاملهِ الذي تدورُ حوله مصالحهُ الشخصية، فلا يصحُّ منه أن يشتغلَ في أيِّ عملٍ يتناقضُ مع حَمْلِهِ الدعوةَ، ولا في أيِّ عملٍ يُنْسِيهِ الدعوةَ ويعوقهُ عنها. وإذا هو فَعَلَ المعالجة يكون

(1) الزخرف/ 22.

قد نقلَ الدعوة من دورانِها حولَ مصالحهِ، إلى دوران مصالحهِ حولَ محوَرِها؛ أي حولَ محورِ الدعوة ومركزها. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[1]. وفي الحديث: [لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يكونَ هَوَاهُ تَبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ][2].

ج. وَمِنَ الصُّعُوبَاتِ الَّتِي تَقِفُ فِي وَجْهِ حَمَلَةِ الدَّعْوَةِ إلى الإصْلاَحِ وَالتَّغْيِيرِ فِي الْمُجْتَمَعِ: التَّضْحِيَةُ بِشُؤُونِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَتِجَارَةٍ وَنَحْوِهِمَا فِي سَبِيلِ الإسْلاَمِ وَحَمْلِ دَعْوَتِهِ.

وللتغلُّب على هذه الصعوبةِ ومعالجتها يذَكَّرُ المؤمنُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[3] ويكتفى بِهذا التذكيرِ ويُترَكُ له الخيارُ في التضحيةِ بِهذه الشُّؤون ولاَ يُسْتَكْرَهُ على شيء، وكما جاءَ في الحديثِ أنَّ رسولَ الله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كتبَ كتاباً لعبدِالله بن جحشٍ (ﷺ) حين بعثَهُ على رأسِ سَرِيَّة ليترصَّدَ قُريشاً في نخلةٍ بين مكَّة والطائف، وقد جاءَ في الكتابِ: [وَلاَ تُكْرِهَنَّ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ، وَامْضِ لأَمْرِي فِيْمَنْ تَبِعَكَ][4].

---

(1) النور/ 54.

(2) الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. قال الإمام النووي رحمه الله: (حديثٌ حَسَنٌ صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح)؛ وأورده في (الأربعين النووية) الحديث الحادي والأربعين (41). وكتاب الحجة هو (الحجة على تاركي سلوك طريق المحجة) للشيخ أبي الفتح نضر بن إبراهيم المقدسي الشافعي. وعزاه الهندي في كنْز العمال ج 1 ص217: للحكيم الترمذي وأبي نصر السجزي في الإبانة، قال السجزي: (حسن غريب). وعدّه البغوي في مصابيح السُنَّة من الحسان: الحديث (131).

(3) التوبة/ 111.

(4) السيرة النبوية لابن هشام: ج 2 ص238–239. والبيهقي في دلائل النبوة: ج 3 ص18–19.

ح. التَّنَوُّعُ غَيْرُ الْمَوْضُوعِيِّ لِلْخِطَابِ التَّرْبَوِيِّ: وقد يتبادرُ إلى الذهنِ أن مِن الصعوبات وأمراضِ المجتمع الاختلافُ المدنِيُّ في المجتمعات، أي الاختلافُ في الوسَطِ الذي يعيشهُ أبناء الأمَّة حيث أوساطُ المدُنِ غير أوساطِ القرى، وغيرُ أوساطِ البَدْوِ، فاختلافُ المدن والقرى ومضاربِ البدو وما إلى ذلك من التبايُن الوسيلي للعيش، فإنه قد يُلقي هذا الاختلاف في الأشكالِ المدنيَّة للدُّعاة بفكرةِ الاختلاف في التثقيفِ، أو في التوجُّه الدراسي للعقيدةِ والشريعة والمنهاج.

تعدُّ هذه الفكرةُ من أخطرِ الصُّعوبات؛ لأن الأمةَ مهما اختلفت فيها الأشكالُ المدنية فهي أمَّةٌ واحدة، وإحساسُها واحد، وإسلامُها واحدٌ. ولذلك يجب أن تكون الدعوةُ فيها واحدةً، لا فرقَ بين مدينةٍ وقرية، ويكون العملُ للإصلاح والتغييرِ واحداً.

فهذه هي أهم أمراض المجتمع وسبل معالجتها.

ثَانِياً: تَصْحِيحُ مَفْهُومِ أَسَاسِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ:

أما الوجهُ الثاني للسُّؤال والجواب عليه، أي قضيَّة بحثِ المصلحين عن سُلطان المسلمين، فإنه لا يتأتَّى بمعزلٍ عن معالجة أمراضِ الجماعة قطعاً؛ لأن السلطانَ هو تعبيرٌ عن إرادةِ الأمة في إنفاذِ الشريعة تطبيقاً في واقعِ المجتمع. فلا يمكن فصلُ إحدى القضيَّتين عن الأخرى، كما أنه لا يصحُّ الخلط بينهما.

إن قضيةَ سُلطان المسلمين تتمثَّلُ في قدرةِ الأمة الإسلامية على إنفاذِ الفكرة الإسلامية (عقيدةً ومعالجات) في واقعِ المجتمع بطريقتها الإسلاميَّة لتنظيمِ الحياة وأسباب العيش، من أجلِ أن تكون كلمةُ الله هي العُليا، وهي الكلمةُ الواحدة التي دعَانَا اللهُ إليها وأمَرَ رسولَهُ أن يدعوَنا للقيام بِها، وهي إقامةُ الحكم (سلطان المسلمين) في الحياةِ على أساسها.

وفضلاً عن واقعيَّة هذه الدعوة ومعقوليَّتها، فإنَّها أولاً وآخراً هي أمرٌ من اللهِ يجبُ طاعته، فالبحث عن سلطانِ المسلمين وإقامة حُكمهم على أساسِ العقيدة والمعالجات المنبثقة عنها – الفكرة الإسلاميةُ – واجبٌ شرعيٌّ لا مناصَ عنه. ولا يتأتَّى هذا الفعلُ إلا بالقيامِ المقصود لله عَزَّ وَجَلَّ وإنفاذ أمره ونَهيه وطاعتهِ فيهما، وهو من ضرورات الدِّين وإلا كان الفسادُ الذي يجب العملُ على إصلاحهِ، وهو

موضوعُ أمراضِ المجتمع وما طرأَ على جماهيرِ المسلمين من ضَعْفٍ في فهمِ الإسلام وغفلةٍ عن التقيُّد بشرائعهِ وأحكامه وأفكارِه.

وربَّما لم يُدرك البعضُ معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[1] ولم يعِ دلالةَ هذا الخطابِ على الواقع؛ ففَهِمَ خطأً أن إقامةَ السُّلطان في بلادِ المسلمين بتطبيقِ الأحكام والأنظمةِ فقط، من غيرِ النظر في قناعاتِ الناس بأساسِ هذه الأنظمة والأحكام؛ أي مدى تجاوُبِهم الفكريِّ والنفسي وقبولهم لأمرِ الإسلام، فقال هو أو فُهِمَ عنه: بأن الحكمَ يكفي أن يطبِّقَ الحاكمُ نظامَ الإسلام حتى تحصلَ النهضةُ في المجتمعِ وتَتِمَّ كلمةُ الله فيه. وهذا في كلِّ الأحوال مفهومٌ خاطئ اضطرب عن أصلِ الصواب، لأن إقامةَ الحكم على الأنظمةِ والقوانين لا يوجِدُ نَهضةً –أي لا يوجِدُ إصلاحاً وتغييراً– وليس هو القيامُ المطلوب في دعوةِ الله للمسلمين بالقيام مَثْنى وفُرادى، وإنما الذي يوجدُ النهضةَ ويحقِّقُ دعوةَ الله بالقيامِ المطلوب له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو إقامةُ الحكم في الأمةِ؛ أي وجودُ السلطان على أساسِ الفكرة، أي أن يجري إنفاذُ الشرع في واقعِ المجتمع على أساسِ العقيدة الإسلامية بوصفه أوامر ونواهٍ من عندِ الله، وبِهذا الوصف فقط.

وينبغي أن يُصحَّحَ هذا المفهومُ؛ لأن إقامةَ الحكم على فكرةٍ لا يعني القيامَ بانقلابٍ عسكري وأخذِ الحكم وإقامته على الفكرةِ بين عشيَّة وضُحاها، فإن مثلَ هذا العملِ لا يوجد نَهضةً ولا تتحقَّقُ به دعوةُ الله للناسِ، فلا يمكن الثباتُ في الحكم، وها أنَّ الناظر يجدُ ما حدثَ ويحدثُ في العالَم الإسلاميِّ من انفصامِ العلاقة بين الحاكمِ والرعيَّة، وأن الحكَّام سرعان ما يسقطون حيث تواجهُ الأمةَ تحدِّيات مصيرية، فلا تصمدُ الأمة أمامَ التحديات لأنَّها فاقدةٌ للسلطان، وأن الحاكمَ أو الفئةَ الحاكمة لا يعبِّران عن سلطانِها وإرادتِها في الحياة، ففكرةُ الحكم لم تَقُمْ فيهم على الفكرةِ التي تعتنقُها الأمة، فلا بد للسلطانِ من أن يقومَ الحكمُ فيه على أساسِ فكرة كليَّة آمَنَ بِها الناسُ واعتقدوها.

(1) سبأ/ 46.

ومن هنا فإنَّ الصحيحَ لإدراك معنى إقامةِ الحكم على أساسِ الفكرة عقيدةً ومعالجات، والبحثِ عن سلطان المسلمين، هو إفهامُ الأمة الفكرةَ، أو الفئة الأقوَى في جماهيرِ الناس من العلماء والمفكِّرين والوُجَهاء والزُّعمَاء وغيرهم، بأن الفكرةَ المطلوبة للنهضةِ الصحيحة هي العقيدةُ الإسلامية وما ينبثق عنها من أفكارٍ ومعالجات لمشكلات الحياةِ، وليس فقط نظام الإسلام بوصفهِ أحكاماً شرعيةً مجرَّدة عن عقيدتِها وغايتها، أي مجرَّدة عن كونِها أوامر ونواهٍ من الله، وغايتها أنَّها تحقِّقُ العبادةَ لله عَزَّ وَجَلَّ. فلا بد من إفهامِ الأمة الفكرةَ المراد إنْهاضها عليها، وجعلها تَبْنِي حياتَها عليها وتتَّجِهَ في مُعتركِ الحياة على أساسِها، وعندئذٍ يقومُ الحكم ويوجَدُ سلطان المسلمين عن طريقِ الأمة على هذه الفكرة وبذلك يكوَّنُ العملُ الإصلاحي للتغييرِ وتحصل النهضةُ قطعاً، أي تحصل القَوْمَةُ لله بكلمتهِ كما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا﴾.

وعلى هذا، فإن الأصلَ في الإصلاحِ والتغيير؛ أي الأصلَ في القَوْمَةِ لله والنهضةِ في المجتمع ليس أخذُ الحكمِ وإقامةُ الأنظمة والقوانين الشرعية بمعزلٍ عن العقيدة، وإنما هو جَمْعُ الأمةِ على فكرةِ الإسلام بوعي وإدراكٍ تامَّين، وجعلها تتجهُ في حياتِها على هذه الفكرةِ، ثم يؤخذُ الحكم لا محالة ويقامُ على تلك الفكرةِ.

ومما يُعْلَمُ بالضرورة الشرعية أن أخذَ الحكم ليس غايةً، ولا يصحُّ أن يكون غايةً، وإنما هو طريقٌ مسلوك بمقتضى العقلِ والنقل، أي هو طريقةٌ للقَوْمَةِ لله عَزَّ وَجَلَّ والنهوضِ لأمره في طريق ممارسة الأعمالِ وإقامة الحدود وإثباتِ الأنظمة والقوانين على أساسِ الفكرة الإسلامية، أي العقيدة الإسلامية بوُجوب اتباعِ أوامر الله ونواهيه بصفتِها أمراً ونَهياً من اللهِ. فهو أخذٌ للحكمِ وإيجادٌ لسلطان المسلمين عن طريقِ الأمة ليقامَ بتطبيقِ الشريعة على أساسِ العقيدة حتى تحصلَ النهضةُ، فتكون القَوْمَةُ للهِ تعالى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

وصورةُ ذلك: ما فَعَلَهُ رسولُ الله (ﷺ)، فإنه حين بعثَهُ الله تعالى برسالةِ الإسلام دعَا الناسَ إلى العقيدةِ الإسلامية، أي للفكرةِ، ثم لَمَّا جمعَ أهل المدينةِ الأوْسَ والخزرجَ على العقيدةِ الإسلامية، أي على الفكرةِ، وجعلَهم يتَّجهون في

حياتِهم عليها، أخذَ الحكمَ في المدينة، وأقامَهُ على العقيدةِ الإسلامية، ثم صار يقولُ: [أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَى يَقُولُواْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُحَمَّد رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُواْ مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا] [1]. أي صارَ يدعو للفكرةِ، وبذلك حصلت النهضةُ في المدينةِ، ثم في العرَبِ، ثم في كلِّ شعبٍ دخلَ في الإسلامِ؛ أي اعتنقَ الفكرة وصار سلطانهُ الذي يرعَى شؤونَهُ قائماً عليها.

وَأَخِيراً: قَضِيَّةُ تَقَبُّلِ الأُمَّةِ لِنِظَامِ الإِسْلاَمِ:

أما تَقَبُّلُ الناسِ لنظام الإسلامِ وقوانينه بحرارةٍ جُملة وتفصيلاً، أو ضَعْفِ هذا الأمرِ فيهم؛ فإنه ينظرُ في أسبابِ وعوامل ضعفِ المسلمين، ولكن الملاحظَ أن الأمةَ الإسلامية اليوم في جميعِ أقطارها، ومنها هذا البلدُ العراق، قد أصابَها الوهَنُ والانحطاط عن المستوَى اللائق بِها، وعلى الرغم من هذا الضعفِ والوهَنِ، فإنَّها تحاولُ النهضةَ منذ أكثرَ من قَرنين من الزَّمن، ولم تُفلح فيها محاولاتُ النهضة حتى هذه الساعة بما يمكن القولُ عنه إنه قَوْمَةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ أنجزَتْ عملاً أو حقَّقت هدفاً.

ولقد أرشدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى أسبابِ ضعف المسلمين، فحذَّرَهم من الافتراءِ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالحكمِ بغير شريعته، أي حذَّرَهم من الحكمِ بغير ما أوحَى به على سيدنا مُحَمَّد رسولِ الله (ﷺ)؛ وحذَّرَهم من الاستجابةِ إلى الأُمَمِ الأخرى ودعواتِها الباطلة، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا . وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا. إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[2]. وبيَّن الرسولُ (ﷺ) تَدَاعِيَ الأمَمِ على نَهج الإسلامِ في الحياة ومحاربتهم له، فعن

---

(1) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب وجوب الزكاة: الحديث (1399). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيْمان: باب الأمر بقتال الناس: الحديث (20/32). والترمذي في الجامع: كتاب الإيْمان: باب ما جاء أُمرت أن أقاتل الناس: الحديث (2606). حديث مشهور.

(2) الإسراء/ 73–75.

ثوبانَ (رضي الله عنه) قال: قال رسولُ الله (ﷺ): [يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قِصْعَتِهَا] فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟! قَالَ: [بَلْ أَنْتُمْ يَومَئِذٍ كَثِيْرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ] قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: [حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ][1].

ثم بيَّن الرسولُ (ﷺ) حالَ الانفصامِ الذي ستعيشهُ الأمة بين عقيدتِها والسلطانِ المتغلِّب بالقوَّة والقهرِ ظُلماً أو كفراً، عن معاذِ بن جبل قال: سمعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) يقولُ: [أَلاَ إِنَّ رَحَا الإِسْلاَمِ دَائِرَةٌ، فَدُورُواْ مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلاَ إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلاَ تُفَارِقُواْ الْكِتَابَ، أَلاَ إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لأَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يَقْضُونَ لَكُمْ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِذَا أَطَعْتُمُوهُمْ أَذَلُّوكُمْ] قَالُواْ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: [كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، نُشِّرُواْ بِالْمَنَاشِيرِ وَحُمِلُواْ عَلَى الْخَشَبِ، مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ][2].

على هذا، فإن الحكمَ القائم في بلادِ المسلمين قائمٌ بطريقةٍ خاطئة، فهو قائمٌ على أساسِ أنظمة وقوانين، ولم يقم على أساسِ فكرة؛ أي عقيدة. سواءٌ كان الحكمُ فيها قائماً على أنظمةٍ غير إسلامية؛ أي قوانين وأحكامِ الكفار التي حوَّلت دارَ المسلمين من الملكِ العضوض إلى الملك الجبريِّ، ومنها بلدُنا العراق وسائرُ بلادِ المسلمين، أو كان الحكمُ قائماً أنظمةٍ إسلامية وأحكاماً شرعيَّة كما هي الحالُ في بعضِ الأقطار، إذا وُجدت. فإنَّها كلها منحطةٌ ولا توجد بِها نَهضة، ولا تحقِّقُ قَوْمَةً بالمفهومِ الصحيح لأن العقيدةَ الإسلامية غيرُ مُفعَّلة في قناعاتِ غالب الجمهورِ وقناعات الفئة الحاكمةِ.

---

(1) رواه أبو داود في السنن: كتاب الملاحم: باب في تداعي الأمم على الإسلام: الحديث (4297). والإمام أحمد في المسند: ج 5 ص278. وإسنادهما صحيح، وله شاهد من حديث أبي هريرة، رواه الإمام أحمد في المسند: ج 2 ص259.

(2) قال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج 5 ص228: قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه يزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ، والوضين بن عطاء وثقه ابن حبان وغيره، وبقية رجال ثقات.

وعلى هذا، فإن القضيةَ في سلطانِ المسلمين هي إقامةُ الحكم على العقيدةِ، وسببُ إخفاق سلطانِهم في العصرِ الحاضر هو إقامتُهم الحكمَ على أنظمةٍ وقوانين بمعزل عن الفكرةِ؛ أي إقامتهم الحكمَ بطريقة الحكومةِ المدنيَّة بمعزلٍ عن الرؤية العقديَّة التي تفرضُها الحضارةُ الإسلامية، مما حجَبَهم عن النهضةِ فضلاً عن النهضة الصحيحة. ولا يقالُ: إن أنظمةَ الحكمِ في بلاد المسلمين تقومُ بالأنظمة الإسلاميةِ والأحكام الشرعية، ولم يحصل بِها نُهوض! لا يقالُ ذلك؛ لأن إقامةَ الحكم وسلطان المسلمين على أنظمةٍ بمعزل عن الفكرةِ كما تقدَّم لا يوجد نَهضةً حتى إذا كانت هذه الأنظمة إسلاميةً، وإنما الذي يُحدِثُ النهضةَ هو إقامة الحكمِ على الفكرةِ، والذي يُحدِثُ النهضةَ الصحيحة هو إقامةُ الحكمِ على الفكرة الإسلاميةِ، أي العقيدة الإسلامية ومعالجاتِها. فإقامة سُلطان المسلمين في دارِ الإسلام على الواحدةِ التي وَعَظَ اللهُ بِها المسلمين أن يقومَ له بِها وهي (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) هو الذي يوجدُ النهضةَ فيهم والقومَةَ منهم للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

أما إقامةُ الحكمِ والسلطان على مذهبِ أبِي حنيفةَ أو مذهب مالكٍ أو مذهب الشافعيِّ أو مذهب أحمدَ وغيرهم من الأئمَّة رضوان الله عليهم جميعاً، فإنه لا يوجدُ نَهضةً قطعاً؛ لأنَّها سوف تؤخذُ كأنظمةٍ وقوانين فحسب، فلا تُحدث نَهضةً؛ لأن القَوْمَةَ لله، فلا بد أن تُقام الأنظمةُ والقوانين في سلطان المسلمين على (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) أي يقامَ الحكمُ على أساسِ هذه الفكرة؛ أي يجب أن تؤخذَ الأحكامُ الشرعية – حين الإنفاذِ والسلطان – باعتبارها أوامر ونواهٍ من الله عَزَّ وَجَلَّ، فيعمل بِها لأنَّها أوامرُ الله، فهي مأخوذةٌ من العقيدةِ الإسلامية، لا باعتبارها قوانين أو مذاهب فقهية تحصل فيها المصلحة وتتحقق بها المنافع، وبِهذا تحصل القَوْمَةُ لله عَزَّ وَجَلَّ، وتحدثُ النهضة الصحيحةُ بإذن اللهِ.

والذي يجبُ أن يُعْلَمَ، أن الأمةَ الإسلامية اليوم لكي تحصل لها نَهضةٌ، لا بد أن تجعلَ العقيدة الإسلاميةَ الأساسَ الذي تتَّجهُ في حياتِها عليه، وتقيمُ الحكمَ والسلطان عليها، ثم تعالِجُ المشاكلَ اليومية بالأحكامِ المنبثقة عن هذه العقيدة؛ أي بالأحكامِ الشرعية بوصفها أوامر ونواهي من الله فقط لا بأيِّ وصفٍ آخر، سواءٌ

أكانت مأخوذةً باجتهاد الأحنافِ أو المالكيَّة أو الشافعية أو الحنابلة أو غيرهم، وبِهذا ستحصل النهضةُ، والنهضة الصحيحةُ وليست أية نَهضة أو سلطان، نَهضة فيها القيامُ لله عَزَّ وَجَلَّ بكلمةٍ واحدة أن اللهَ ربُّ العالمين، وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله الأمين، فتعودُ الأمة الإسلامية بِهذه القَوْمَةِ خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس تَقْتَعِدُ ذروةَ الْمَجدِ وقيادةَ العالَم من جديدٍ.

هذا الذي يجب أن يُدرك وينبغي أن يُعلم في أمرِ البحث عن سلطان المسلمين بقصدِ استئناف الحياة الإسلامية.

رابعاً: آلِيَّةُ تَنْفِيذِ الإِصْلاَحِ مِنْ أَجْلِ التَّغْيِيرِ:

أما الجوابُ على السؤالِ الرابع: ما هي آليةُ الإصلاحِ والتغيير، فإنه مما يُعْلَمُ بالضرورةِ الشرعية والواقعية، أن الأمةَ الحيَّة هي التي تصنعُ سلطانَها من ذاتِها وبأمانِ نفسها، من غيرِ استعانة بأحدٍ غير بَارِئِها، ويعلمُ بالضرورة أن طريقةَ ذلك تأتي بالعزمِ على الإصلاح والتغيير، ومما يلاحظ هنا: أنه إذا صَلُحَ حالُ الناس بأفرادِهم وجماعاتِهم وُجد التغييرُ لا محالة؛ وإصلاح حالِ الناس يعني تقويمَ ما أَفْسَدَ فطرتِهم، بطريقةِ تصحيح الخللِ الذي طرأَ على الأذهان في فِهْمِ الإسلام، وفهمِ الواقع وإدراك المطلوب فيه بنظامِ الإسلام. فلابد من أن تجريَ عمليةُ الإصلاح بحركةٍ فكرية تُحْدِثُ التغييرَ الثقافي والسياسيَّ للناس وعلاقاتِهم. ومع أن هذه الحركةَ تبدأُ بالفرد، ولكنها تنمُو وتتكاثرُ في الجماعة، وذلك حين يتأهَّلُ الفردُ لجزئية الجماعة. فالإصلاحُ حركةٌ ثقافية لتقويةِ الذهن في فهمِ نظام الإسلام بما يُحدث التغييرَ في حياة الفردِ والجماعة، وطريقتُها القيامُ إلى طلبِ الحقِّ والنهضة إليه حُسبةً لله عَزَّ وَجَلَّ.

ولقد عُلم أن الإسلامَ عالَج هذه الحركةَ الثقافية من أجلِ النهضة الصحيحة وكيفية التغيير، بأن جعلَ أساسَ النهضة الفكرةَ الجامعة للأفكارِ والأحكام ونُظُمِ الحياة وسُبُلِ النهج فيها. ومن دراسة عمومات الشريعة ومنهاج الإسلام، يتعيَّن أن القيامَ لله عَزَّ وَجَلَّ بكلمةِ الإسلام وإنفاذ أمرِهِ ونَهيه يأتي في الواقعِ إما بالتقوى أو بدافعِ السُّلطان أو بكِلَيهما.

أما دافعُ التقوَى، فهو حالٌ فردية تستمدُّ قوَّتَها من إيمانِ الشخص الفرد وحرصهِ على اتِّباع أوامرِ الله ونواهيه بوصفها أوامر ونواهيَ من الله، فيقومُ بالمطلوب طاعةً لله وعبادةً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وهذه هي قضيةُ إصلاح الفردِ لجزئية الجماعة بإيجاد أسبابِ التقوى فيه وهي غيرُ قضية تغييرِ المجتمع.

أما التغييرُ في المجتمع، فهو بِتَفْعِيلِ سُلْطَانِ الأُمَّةِ نحو الخيرِ، أي إرادتَها في تنفيذ الشريعةِ على أساس العقيدة. وهذه السلطةُ لا بدَّ لها من شَوْكَةٍ وَقُوَّةٍ تَحْمِيهَا؛ وتتمثَّلُ بقوَّة الجنديِّ والشرطي والموظَّفِ: الجندي الذي يحمِي أمنَها الخارجيَّ، والشرطي الذي يحمِي أمنَها الداخليَّ، فضلاً عن المؤسَّسات الوظيفية التي تقدِّمُ الخدماتِ للأمة في مجالات الصحَّة والتعليم والقضاءِ العادل.

وعلى هذا فإن آليةَ الإصلاحِ والتغيير في المجتمعِ لتحويله بنَقْلَةٍ موضوعية من الملكِ الجبري إلى دار الإسلامِ، لا يتأتَّى إلا بجعلِ السلطان للأمة من ذاتِها، وأن تصنعَ أمانَها بنفسها. بمعنى أن تعملَ الأمة على مَسْكِ أمنِها الداخليِّ بحركاتٍ مقصودة في مجالِ الأمن ومنعِ الجريمة، وفي مجال الصحَّة وأسبابِها، وفي مجال حماية منهاجِ التعليم الحضاري والمدني. وكذلك في صناعة جيشِها القويِّ. فتعملُ الأمة على المحافظةِ على كل مؤسَّسات سلطانِها وأن تمنعَ أيَّ تعرُّضٍ يسيءُ إلى تماسك هذا السلطانِ كُلاًّ أو بعضاً، فتعملُ الأمة على إرشادِ أبنائها في مسالكِ الجيش والشرطة بأن يكونوا حُمَاةً لها. وتتقصدُ ذلك بالوسائل والأساليبِ الممكنة، وتُعِدُّ الخططَ لذلك بوساطة فِئَتِهَا المختارةِ والنُّخبة من قادتِها. وتحاول جاهدةً مهما تحمَّلت من نَصَبٍ أو مشقَّة المحافظةَ على هذه الأجهزةِ، التعليم والصحَّة والجيش والشرطة أن تكون بأيدي أبنائها المخلصين. والأمةُ التي لا تَنْتَبِهُ إلى هذه الأجهزةِ وتحافظ عليها، فإنَّها ستتعرضُ لانتهاكِ الكرامة، وهدرِ الطاقة، واستمرارِ العدوان عليها.

إنَّ هذا لا يعني إهمالَ ما تقدَّم، وإنما هو من الناحيةِ العملية الميدانية يراعى لأجلِ حماية الأمة لنفسها. فآليَّة العملِ الإصلاحي للتغيير تتحرَّكُ باتجاهِ حركَتين، الأولَى تتجهُ إلى إعدادِ الفرد وتربيته لجزئيَّة الجماعة، وهي المتمثلة

بالحركةِ الثقافية من أجلِ النهضة الصحيحة وطريقتها القيامُ لله عَزَّ وَجَلَّ مَثْنى وفُرادى كما أمَرَ، أي لتحقِّقَ دافعَ تقوى اللهِ في إنفاذ أمرِهِ.

والحركةُ الثانية ميدانيَّة، تتجهُ إلى أجهزةِ المجتمع ومؤسَّساته الوظيفية التي يتجسَّدُ فيها سلطانُ الأمة، أي قوَّة التنفيذ لإرادةِ الأمة، المتمثلة بالجنديِّ والشرطي، والتهاونُ في أمرِهما ضربٌ لسلطان الأمةِ عملياً، إذ بِهما تحفظُ الأمة سيادةَ الشريعةِ حين إرادتِها إنفاذَ أوامرِ الله ونواهيه؛ فسلطانُ الأمة أي إرادتُها في إنفاذِ الشريعة لا وجودَ له بدون القوَّة، والقوةُ في الجماعة أسبابُ الحمايةِ وحفظ الأمن في جماعتِها؛ ولا يتأتَّى ذلك إلا بوجودِ الجنديِّ والشرطي. لأنه لا يُتصوَّرُ وجودُ السيادة للأمة أي سيادة شريعتِها من غير إرادةٍ، إذ فقدانُ الإرادة (قوة التنفيذ) يجعلُ الأمة ناقصةً بل مشلولةً، ولم يَعُدْ لوجودِ السيادة معنىً؛ بل يمكن أن يقالَ: بإنه إذا فُقدت الإرادةُ فقدت السيادة لا محالةَ.

وحتى تقومَ الأمة لله عَزَّ وَجَلَّ، لا بدَّ من أن تكونَ حاميةً لسيادتِها بإرادتِها، والسيادةُ في العقيدة الإسلامية للشَّرعِ، لأن السيادةَ تُقَرِّرُ، وقرارُ الأمةِ الإسلامية حكمُ الشرعِ فيها، وإذا فُقِدَ حكمُ الشرع منها؛ صارت الأمةُ بحال العبدِ يسُودُهَا غيرها من الأمم، وإن كانت لديها إرادةٌ؛ أي جيشٌ وشرطة وموظَّفين مخلصين في خدمتِها، فإن الأمةَ لا تحمي نفسَها بفسادِ أبنائها، فما لم يكن الجيشُ والشرطة والموظفون يتطلَّعون إلى إنقاذِ أُمَّتهم من سبيلِ الكافرين عليها، فإنَّها ستبقى مُستعبَدةً مُحتَلَّةً من قبل الكافرِ المستعمر المتغلِّب على بلادِ المسلمين.

لهذا فإن الأمةَ مهما فقدت من سيادةِ الشرع فيها، فإنَّها إذا عَمِلَتْ على تقويةِ سلطانِها من ذاتِها، بأن تنتصرَ بأبنائها المدركين الواعين، فإنَّها ستسترجعُ عافيتَها في يومٍ ما، والأيامُ دُوَلٌ بين الناسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

(1) آل عمران/ 140-141.

وعلى هذا، فإن آليةَ الإصلاحِ والتغيير تقومُ بجعل الحكمِ في كلِّ شيء يقومُ على أساسِ الفكرة عقيدةً ومعالجات، شريعةً ومنهاجاً. وأن يعملَ الواعون على المحافظةِ على سلطان الأمةِ وسيادة الشريعة ما استطاعوا لذلك سبيلاً. وإنْ فَقَدُوا الكثيرَ من ذلك، فإن الأمةَ تستطيعُ استعادته حين تعزمُ عليه وتتضِحُ الرؤيةُ عندَها.

هذا ما تَيَسَّرَ في الإجابةِ على الأسئلةِ الأربعة.

والله أعلم، وتبارك الله، والحمد لله، وأستغفر الله.

Philosophical Bases to Reform the Society

Hisham A. S. Al-Badrani*

Abstract

The present study gives a bird-eye view about reform in the society. It consists of ten main arts in reviewing the subject explaining the definition of "Reform" and change methods and ends of this reform.

The paper treats the pillars of Reform and Change as far as their contents are concerned (the idea and method), their field, i.e. (the nation both members and blocs) and their performers, i.e. (the reformers both members and blocs). The study puts forward questions and answers through four axeses:

1. The present state of the Muslim Nation (Umah).
2. The Concepts of studying the psychological state of our Umah.
3. The psychological state of our Umah to interact with reformers.
4. The methods of reform and change.

* Researcher and Academician.